إرث الامبراطورية
جود الخبصي

قبل أن تقرأ...

هذه ليست رواية عن أبطال، ولا عن وحوش. هي رواية عن بشر ورثوا الظلام صغاراً، ثم صار عليهم أن يختاروا بين أن يكملوا الإرث أو أن يكسروا القاعدة الأولى.
ستقابل هنا رجلاً ظنه العالم كاذباً فاكتشف أن الحقيقة كانت مدفونة، ورجلاً ظنه الناس قوياً فاكتشف أن القوة الحقيقية لم تكن يوماً بيده. ستدخل مدناً تشبه الجروح، وقصوراً تسكنها ظلال لا تفارق الجدران.

العبرة التي يجب أن تخرج بها من هذا الكتاب هي: أن الإرث الحقيقي ليس ما يتركونه لك، بل ما تختاره أنت. فبعضهم يرث الكراهية فيظنها مجداً، وبعضهم يرث الحب فيحمله كدرع. لا تكن وريثاً لشيء لم تختره، بل كن أنت القاعدة التي تُكسر بها كل القواعد الخاطئة.

فإن أنهيت الصفحات الأخيرة وتذكرت جملاً من هذا الكتاب، فلتكن هذه احداهن: الوجوه لا تظهر إلا بعد أن تسقط الأقنعة، والقلوب لا تنجو إلا بعد أن تختار الضوء. اختر. دائماً.

إرث الامبراطورية

الكتاب الثاني من سلسلة الوريث والمنتقم

رواية:

ايهم بسام فاعور

(جود الحمصي)

الطبعة الاولى:

2026 م/1448ه

ظنوا أن الماضي يموت. ظنوا
أن الحقيقة تختفي. ظنوا أن
رجلاً بلا اسم لا يستطيع أن
يقلب العالم. لكنهم نسوا أن
أقوى العواصف... تبدأ من
صمت."

الفصل الأول

عودة الغائب

المطر لم يتوقف منذ منتصف الليل

كان يهطل على المدينة كأنه يريد أن يغسل شيئاً لا يغسل

في الطابق السابع من بناية قديمة في الحي الشرقي

كان رجل يقف أمام النافذة

لم يكن رايان المواراتي

لم يكن أحداً من رجاله

كان جود الحمصي

كان قد عاد لتوه من الحانة تحت الأرض

عاد بعد أن ترك السبعة يغرقون في خوفهم

بعد أن وضع الورقة القديمة أمامهم

بعد أن قال لهم اذهبوا إلى الوريث واعترفوا

لم يكن متعباً

كان متيقظاً

كان يعرف أن هذه الليلة ليست نهاية شيء

بل بداية كل شيء

نزع قناعه ببطء

وضعه على الطاولة أمام المرآة

المرآة العتيقة ذات الإطار

الذهبي المتقشر

نظر إلى وجهه

الوجه الذي لم يره أحد منذ

خمس عشرة سنة

الوجه الذي حفظه القناع عن

الأعين كان ما يزال يحمل آثار

الحريق القديم ندوب صغيرة

على الجانب الأيمن تمتد من

تحت العين إلى الفك كخريطة

نار لم تكن تشوهه

بل كانت تجعله غامضاً

شعر أسود بدأ يخطه الشيب

عند الصدغين

عينان عسليتان تقدحان بذكاء

بارد شفاه رفيعة لا تبتسم إلا

نادراً وقف أمام المرآة طويلاً

ثم همس بصوت خافت

لقد نسوك يا جود كلهم

نسوك ظنوا أنك مت ظنوا

أنهم دفنوك مع الحقيقة

لكنك هنا بعد كل هذه

السنين ما تزال واقفاً رفع

يده ولمس الندوب على خده

الأصابع كانت ثابتة لم

ترتجف كان قد تعلم ألا

يرتجف منذ زمن طويل في

تلك اللحظة فتح باب الغرفة

دخلت سلمى امرأة في

الثلاثين شعرها الأسود

القصير يلامس كتفيها

عيناها حادتان كعيني صقر

كانت تحمل ملفاً جلدياً أسود

وضعته على الطاولة دون أن

تتكلم

نظر إليها جود ماذا لدينا

فتحت الملف أخرجت منه

صورة صورة قصر المواراتي

التقطت من بعيد الحراس

على البوابات الكلاب في

الحديقة الكاميرات على

الجدران قلتِ إنه تقاعد نعم

تقاعد لكنه لم ينسَ كيف

يحمي نفسه القصر حصن

ستة عشر حارساً في

المناوبة الليلية كاميرات

حرارية بوابات فولاذية

سيارة مصفحة في المرآب

وخلية أزمة تحت المبنى

نظر جود إلى الصورة

طويلاً ثم قال بصوت هادئ

لا يهمني القصر لا يهمني

الحراس لا أريد اقتحامه

بل ماذا تريد أريده أن

يخرج أن يخرج من حصنه

أن يأتي إلي أن يسأل عني

أن يعرف الحقيقة ثم ماذا

ثم نرى ساد الصمت

المطر كان يزداد غزارة

خارج النافذة سلمى أغلقت

الملف جلست على الكرسي

المقابل سيدي نعم هناك

أمر آخر ماذا أمل تجمد

جود للحظة ابنته نعم

ماذا عنها في الرابعة

عشرة تدرس في مدرسة

سانت كاترين الخاصة

متفوقة. هادئة. تحب
القراء. لديها ثلاثة حراس
شخصيين. وواحد داخل
المدرسة لا تخرج إلا نادراً
سكتت سلمى ثم
أضافت بصوت أخفض
وهي لا تعرف شيئاً عن
ماذا عن ماضي أبيها عن
الإمبراطورية عن البارون
عن كل ما حدث نظر جود
إلى المرأة مجدداً ثم قال
بصوت فيه شيء من
تعب قديم هذا أفضل
لها أفضل أن تبقى
بعيدة أن لا تعرف أن لا
تتورط وماذا عنك أنا
متورط منذ خمس عشرة
سنة لا مفر لي

لا طريق للخروج. لكنها
ما تزال طفلة لم تختر
هذا العالم. دعها تعيش
بسلام. ما استطاعت.
صمتت سلمى. ثم فتحت
صفحة أخرى من الملف.
هناك شيء آخر. ماذا؟
الرجال السبعة. الذين
كانوا في الحانة. نعم
أحدهم لم يذهب إلى
الوريث تجمد جود نظر
إليها عيناه اشتعلتا من
نادر شاهين نادر نعم
لماذا يقول إنه خائف
يقول إن الوريث سيدمره
يقول إنه يفضل الهرب

إلى أين؟ أوروبا ربما براغ

براغ دائماً براغ وقف

جود فجأة تحرك نحو

النافذة المطر على الزجاج

كان يرسم أنهاراً صغيرة

صوته صار أبرد نادر

شاهين أول من وصفني

بالكذاب أول من بصق

على وجهي أول من قال

للبارون إنني الخائن والآن

يريد أن يهرب ماذا

سنفعل سنجده قبل أن

يغادر قبل أن يختفي في

شوارع براغ سنجده

وسنذكره

أخرجت سلمى هاتفها

كتبت شيئاً ثم رفعت

رأسها رجالنا في المطار

إذا حاول الهرب الليلة

سنعرف جيد وماذا عن

الوريث ماذا عنه باقي

الرجال ذهبوا إليه

اعترفوا أخبروه بكل شيء

إذن هو يعرف الآن

يعرف أن هناك رجلاً

اسمه جود الحمصي

يعرف أنهم ظلموه

يعرف أنه عاد نعم وماذا

سيفعل لا أحد يعرف

لكن عزيز قال لنا إنه لم

ينم تلك الليلة جلس في

مكتبه حتى الفجر ينظر

إلى صورتك القديمة

صورتي

نعم الصورة التي كانت في ملفات

الإمبراطورية صورة الشاب ذي العينين

العسليتين قبل الحريق قبل كل شيء أغلق

جود عينيه للحظة عاد به الزمن إلى الوراء

إلى يوم كان فيه شاباً يريد فقط أن يثبت

نفسه أن يكون جزءاً من شيء كبير أن يجد

عائلة لم تكن عائلة كانت فخاً وحشاً

والبارون كان صياده فتح عينيه نظر إلى

سلمى جهزي السيارة إلى أين سنزور نادر

شاهين قبل أن يصل إلى المطار الليلةوماذا

إن قاوم لن يقاوم سيخاف الخائفون لا

يقاومون يتوسلون وماذا ستقول له لا شيء

فقط سأذكره بوجهي بهذا الوجه الذي

صنعوه بهذه الندوب التي منحوني إياها

سأريه أن الموت لم يأخذني وأن الحقيقة لا

تموت وقف أمام المرآة أمسك القناع

الأسود رفعه وضعه على وجهه الآن صار

جود الحمصي

الآن صار ما صنعوه الآن صار الخوف الذي

سيطاردهم واحدا واحداحتى آخر نفس

خرج من الغرفة

سلمى خلفه نزلا الدرج المطر كان يضرب الرصيف بعنف. السماء كانت سوداء لا قمر لا نجوم فقط مطر وظلام ورجل بقناع أسود يمشي نحو سيارته نحو أول اسم في القائمة وفي تلك الليلة في قصر المواراتي كان رايان المواراتي جالساً في مكتبه لم يكن وحده لين كانت معه جالسة على الأريكة فنجان قهوة بارد في يدها

وعيناها مثبتتان على زوجها

الذي لم ينطق بكلمة واحدة منذ ساعاترايان نعم من هو جود الحمصي نظر إليها عيناه الرماديتان كانتا متعبتين لا أعرف لكن الرجال قالوا إنهم ظلموه

قالوا إنهم سرقوا حياته كيف لم تكن تعرف كنت الوريث كيف يحدث شيء كهذا في إمبراطوريتك دون أن تدري وقفت ومشت نحوه جلست على حافة مكتبه قريبة منه حدثني أخبرني ماذا تعرف أخرج رايان الصورة القديمة من درجه صورة الشاب ذي العينين العسليتين وضعها أمامها هذا جود قبل خمس عشرة سنة أراد الانضمام إلى الإمبراطورية

كان شاباً

طموحاً ذكياً لكن أحدهم خانه اتهمه

بالسرقة بالكذب بالتجسس

من؟

لا أعرف ربما البارون ربما رجاله ربما أحد

أعدائي لكنه دمر شوه أحرق ثم اختفى

الجميع ظن أنه مات لكنه لم يمت عاد

نظرت لين إلى الصورةإلى العينين

العسليتين إلى الوجه الذي لم تمسه النار

بعد

ماذا يريد؟

العدالة

كما قالوا

الانتقام؟

ربما من الذين ظلموه من الرجال السبعة

من كل من شارك من الإمبراطورية

منك؟ لا أنا لم أشارك لم أكن أعرف

لكنك الوريث وريث الإمبراطورية وريث

البارون وكل ما فعلته الإمبراطورية في

ظهرك أنت مسؤول عنه سواء علمت أم

لم تعلم

صمت رايان نظر إلى المطر ثم قال بصوت
خفيض أعرف لهذا أنا خائف ليس منه بل من
الحقيقة من أن أكتشف أني كنت جزءاً من شيء
شيء دمر حياة رجل بريء دون أن أدري ماذا
ستفعل سأنتظر سيأتي عاجلاً أم آجلاً سيأتي
لأنه لا يريد غيري بل يريدك أنت لماذا لأني
الوريث الوحيد الذي بقي الوحيد الذي لم
يشارك الوحيد الذي يمكن أن يمنحه ما يريد
وما الذي يريده العدالة كما قالأن يعرف
الجميع أنه كان بريئاً أن يعود اسمه نقياً
أمسكت لين بيده وإن لم يأت وإن قرر الانتقام
وحده وإن قرر ألا يراك أبداً نظر إليها سياتي
أعرف ذلك لأنني لو كنت مكانه لجئت إلي
أنهى كلامه ثم نظر إلى الصورة مرة أخيرة
إلى العينين العسليتين إلى الشاب الذي كان
قبل أن تسرقه النار وقبل أن تسرقه
الإمبراطورية وقبل أن يعود من الموت ليكتب
الفصل الأخير

يتبع...

الفصل الثاني: الاسم الأول

نهض رايان من مكتبه مع بزوغ الفجر، المطر كان قد توقف أخيراً، الحديقة كانت مبللة والضباب يغطي الأشجار، لم ينم تلك الليلة، لم يستطع، صورة جود الحمصي كانت ما تزال على المكتب، العينان العسليتان تحدقان به من الماضي. لين كانت قد صعدت إلى غرفتها قبل ساعة، تركته مع أفكاره، مع شياطينه، مع الحقيقة التي بدأت تتكشف. فتح الباب وخرج إلى الرواق، كان القصر صامتاً، الحراس في مواقعهم، الخدم لم يستيقظوا بعد. مشى إلى غرفة المراقبة، عزيز كان هناك، يجلس أمام الشاشات، فنجان قهوة في يده، نهض فوراً عندما رأى رايان. سيدي، صباح الخير. أي أخبار عن نادر شاهين؟ نادر؟ الرجل الذي لم يذهب مع الباقين؟ نعم. اختفى. اختفى؟ نعم، رجالنا راقبوا شقته طوال الليل، في الميناء القديم، قبل الفجر بساعة،

دخل رجلان المبنى، رجل
وامرأة، لم نر وجهيهما
بوضوح، المطر كان غزيراً
والكاميرات مشوشة، لكن الرجل
كان يرتدي معطفاً أسود،
وقبعة، وقناعاً. قناعاً؟ نصف
قناع أسود. هذا هو، جود
الحمصي. وماذا حدث؟ سمعنا
صوتاً عالياً بعد دقائق، ليس
إطلاق نار، بل صوت اصطدام،
ثم صمت، ثم خرجا، الرجل
والمرأة، وحدهما. ونادر؟ لم
يخرج، بقيت الشقة فارغة
بعدها، أرسلنا رجالنا بعد ساعة،
نادر شاهين لم يعد هناك، لم
تكن هناك جثة، لم يكن هناك
دم، فقط الغرفة كانت مقلوبة،
والحقيبة على السرير، مفتوحة،
فارغة، والمسدس على الأرض،
ومظروف على الطاولة.

مظروف؟ نعم، مكتوب عليه
اسمك. أعطني إياه. أخرجه
عزيز من درج المكتب، مظروف
أبيض، مختوم بشمع أسود، لا
أحمر هذه المرة، بل أسود. فتحه
رايان، أخرج ورقة واحدة،
مكتوب عليها بخط أنيق،
حروف سوداء، جملة واحدة
فقط. سيدي، ماذا يقول؟ نظر
رايان إلى الورقة، قرأها، ثم قال
بصوت خفيض: يقول: واحد
تم. واحد تم؟ ماذا يعني؟
يعني أن نادر شاهين كان الأول،
أول اسم في قائمته، وأنه لن
يقف عند هذا الحد. باقي الرجال
الستة في خطر، بل ربما أكثر،
كل من شارك في ظلمه، كل من
سكت،

كل من نسي. وأنت أيضاً؟ لست
استثناءً. ولماذا لم يقتله؟ لأن
الموت أسهل مما يستحقون،
يريدهم أن يعيشوا، أن يعرفوا،
أن يخافوا، أن يستيقظوا كل ليلة
يتساءلون: هل أنا التالي؟
جلس رايان على الكرسي، عيناه
على الورقة، على الحبر الأسود،
على الكلمات التي تحمل تهديداً
أعمق من الموت. بعد دقائق
طويلة من الصمت، تكلم: أريد
تعزيز الحراسة على الستة
الباقين. ولكنهم خونة، خانوا
الإمبراطورية، خانوك. لماذا
تحميهم؟ لا أحميهم، بل لا
أريده أن يكمل وحده، لا أريده أن
يصبح ما صرت عليه: قاتلاً،
منتقماً.

وحشاً. وإن رفضوا الحماية؟

سيرفضون، الخائف لا يثق بأحد.

ولكنهم يستحقون أن يعرفوا أن

الخيار ما يزال بأيديهم: الاعتراف،

مواجهة الحقيقة، قبل أن يواجهوا

القناع، قبل فوات الأوان.

خرج رايان من غرفة المراقبة، صعد

إلى الطابق العلوي، توقف عند غرفة

أمل، فتح الباب قليلاً، كانت نائمة،

شعرها الأسود على الوسادة، وجهها

هادئ، بريء، لا تعرف شيئاً عن

العاصفة القادمة. أغلق الباب بصمت،

ثم تابع إلى غرفته، جلس على حافة

السرير، لين كانت نائمة أيضاً، لم

يوقظها. نظر من النافذة، الضباب

كان يتبدد ببطء، الشمس بدأت

تشرق على الحديقة، لكنه لم ير

الجمال، رأى وجهاً آخر،

وجهاً بعينين عسليتين، ونصف قناع
أسود، ورسالة من الماضي تقول إن
العدالة لم تكتمل بعد.
في تلك الساعة، في الجانب الآخر من
المدينة، في شقة جود الحمصي، كان
جود جالساً أمام المرآة، القناع على
الطاولة، الندوب على خده تضيئها
شمس الصباح. سلمى كانت خلفه، تحمل
فنجان قهوة، وضعته أمامه بهدوء.
سألته: هل كان الأمر سهلاً؟ لم يجب
فوراً، رفع الفنجان، رشفه ببطء، ثم قال:
كان سهلاً لأنهم لم يتوقعوا. ظنوا أن
الماضي دفن، ظنوا أن الموتى لا
يعودون، ظنوا أن الزمن يمحو كل شيء،
لم يتوقعوا أن يطرق بابهم رجل بقناع
بعد كل هذه السنين. وماذا عن الوريث؟
سيصل إليه المظروف اليوم، وسيفهم أن
اللعبة بدأت، وأنها لن تتوقف حتى
تكتمل. وماذا بعد؟ بعد أن تنتهي من
الستة، ماذا ستفعل؟

نظر جود إلى المرآة، إلى الندوب، إلى العينين العسليتين، ثم قال بصوت هادئ جداً: سأذهب إليه، ليس للانتقام، بل للسلام. سلام؟ نعم، لأن الحرب انتهت بالنسبة لي منذ زمن طويل، ما أفعله الآن ليس حرباً، بل تصحيح، تصحيح خطأ، تصحيح ظلم، تصحيح اسمي، وعندما يصبح اسمي نظيفاً، سأضع القناع وأرحل. إلى أين؟ لا أعرف، ربما براغ، ربما مكان آخر، لكنها لن تكون هنا. نظرت إليه سلمى طويلاً ثم قالت: وإن لم تسمح لك الظروف بالرحيل؟ وإن اعترض الوريث طريقك؟ وإن تحول التصحيح إلى حرب جديدة؟ ماذا ستفعل؟ وضع جود فنجان القهوة على الطاولة، ثم قال بصوت لا يحتمل التأويل: سأفعل ما يجب، دائماً.

يتبع...

الفصل الثالث

الاسم الثاني

لم يعد رايان إلى النوم بعد أن غادر غرفة المراقبة، جلس في مكتبه والمظروف الأسود لا يزال مفتوحاً على الطاولة أمامه. الجملة الواحدة التي كتبها جود الحمصي كانت تحترق في ذهنه: واحد تم. كأنها ليست نهاية بل إنذار، كأنها وعد بأن القادم أكثر. عزيز أحضر له قائمة بالرجال الستة الباقين، أسماؤهم كانت مألوفة، وجوههم كانت مألوفة أيضاً. رجال من زمن البارون، من زمن الإمبراطورية العجوز، من الزمن الذي كان رايان نفسه جزءاً منه دون أن يدري كل شيء. قال عزيز وهو يشير إلى الاسم الثاني في القائمة: زكريا مطر. ماذا تعرف عنه؟ كان مساعد نادر شاهين في تلك الأيام، هو من شهد ضده، شهد أن جود سرق المعلومات وباعها للشرطة. شهادة زور؟ على الأرجح.

أين هو الآن؟ لديه متجر صغير في الحي القديم، يبيع تحفاً، متقاعد، لم يعد له دور في أي شيء، لكنه ما يزال هنا. لماذا لم يهرب؟ ربما لا يعرف أن دوره قادم، أو ربما يظن أنه نجا.

نهض رايان، أمسك بمعطفه وتوجه نحو الباب، عزيز تبعه بقلق: سيدي، إلى أين؟ إلى زكريا مطر. بنفسك؟ نعم. لكنه قد لا يفتح لك. سيفتح. ولماذا تذهب؟ لتحذيره؟ لا، لأسأله. أسأله ماذا؟ لماذا فعلها، لماذا شهد زوراً، لماذا دمر حياة رجل بريء قبل خمس عشرة سنة.

في تلك الأثناء، في شقة جود الحمصي، كانت سلمى تضع ملفاً جديداً على الطاولة، كان الملف أرق من الملف السابق لكنه كان أثقل. جود كان واقفاً عند النافذة ينظر إلى المدينة التي بدأت تستيقظ، الشمس كانت تذيب بقايا المطر على الزجاج،

المدينة كانت تتحرك ببطء تحت
ضوء الصباح، ناس يمشون،
سيارات تزحم الشوارع، أصوات
أبواق من بعيد، حياة عادية،
حياة لا تعرف أن رجلاً بقناع
أسود ينظر إليها من الطابق
السابع. قالت سلمى: زكريا مطر،
الاسم الثاني. ماذا وجدت عنه؟
لديه متجر تحف في الحي
القديم، يعيش وحده، لا عائلة،
لا حراس، لا حماية. خائف؟ لا
يبدو ذلك، لم يغير روتينه،
يفتح المتجر كل صباح، يغلق
عند الغروب، يعود إلى بيته
سيراً على الأقدام، كأن شيئاً لم
يحدث، كأن خمس عشرة سنة
لم تمر، كأنه نسي. التفت جود
إليها، عيناه خلف القناع كانتا
هادئتين: لم ينسَ، لا أحد منهم
نسي، هم فقط يظنون أني
نسيت.

ارتدى معطفه الأسود، أمسك بقبعته. قالت سلمى: إلى أين؟ إلى الحي القديم. في وضح النهار؟ في وضح النهار. لكن الناس سيرونك. ليروا، أنا لست شبحاً، أنا رجل حي، وقد آن الأوان أن يعرفوا ذلك. خرج من الشقة، نزل الدرج، الشارع كان مزدحماً بعض الشيء، ناس في طريقهم إلى العمل، سيارات، حافلات، باعة متجولون، المدينة كانت تتنفس، وكان رجل بقناع أسود يمشي بينهم. البعض التفت إليه، نظرات فضول، نظرات خوف، همسات: من هذا؟ لماذا يرتدي قناعاً؟ ماذا يخفي؟ لكن أحداً لم يجرؤ على الاقتراب، كان القناع كجدار، يحميه ويفصلهم عنه في آن واحد

جود كان يمشي بخطوات واثقة، لم يسرع، لم يبطئ، كان يعرف أن هذه اللحظة ستأتي، لحظة الخروج من الظل، لحظة المشي في وضح النهار، لحظة أن يراه العالم كما هو: رجل بقناع، رجل بلا اسم، رجل عاد ليكتب النهاية.

وصل رايان إلى الحي القديم أولاً، متجر التحف كان صغيراً، بواجهة زجاجية مغبرة، وقطع أثرية متناثرة بلا ترتيب، ساعات قديمة، مصابيح نحاسية، كتب صفراء، كان يبدو مكاناً نسيه الزمن، مكاناً يختبئ فيه من لا يريد أن يُوجد. دفع الباب ودخل، الجرس الصغير فوق الباب رن، صوت الجرس كان ضعيفاً، كأنه اعتاد الصمت. رجل في الستين خرج من الغرفة الخلفية، كان نحيفاً، بشعر أبيض كامل، ونظارات سميكة، توقف فجأة عندما رأى رايان،

عرفه فوراً، لم تكن هناك حاجة
للتعارف، الوجه، العينان الرماديتان،
الندبة تحت العين اليسرى، الوقفة،
كل شيء كان يقول إنه الوريث. قال
رايان: زكريا مطر. الرجل لم يجب،
كان ينظر إلى رايان كأنه رأى شبحاً،
كأن الماضي كله دخل معه من الباب،
كأن خمس عشرة سنة انهارت في
لحظة واحدة. يبدو أنك تعرف من أنا.
أعرف، الجميع يعرف الوريث. صمت
قليلاً، ثم أضاف بصوت مرتجف: أعرف
أيضاً لماذا أنت هنا. لماذا؟ بسببه،
بسبب جود، عاد أليس كذلك؟ عاد.
نعم، عاد، وذهب نادر شاهين الليلة
الماضية. ذهب؟ أين؟ لا أعرف، لكنه
لم يقتل، اختفى. اختفى... هذا أقسى
من الموت. أعرف، لهذا أنا هنا. لم تأت
لتحذرني؟ لا، جئت لأسألك: لماذا؟ لماذا
شهدت زوراً؟ لماذا دمرت حياة رجل
بريء؟

كان زكريا مطر ينظر إلى الأرض، يداه ترتجفان، أنفاسه متقطعة، ثم همس بصوت خافت: كنت خائفاً، كلنا كنا خائفين، البارون... البارون أعطانا اسمه، قال: هذا هو الخائن، هذا هو الجاسوس. قلنا له: كيف تعرف؟ قال: أعرف. وكان ذلك كافياً. لم تسألوا، لم تتحققوا، لم تطلبوا دليلاً واحداً. لو سألنا... لو سألنا لقتلنا، البارون لم يكن يسمح بالأسئلة، كنت تعرف ذلك، أنت كنت تلميذه. رايان صمت، ضربات قلبه كانت قوية، لم يستطع أن ينكر، كان يعرف، كان يعرف أن البارون لا يسمح بالأسئلة، كان يعرف أن الإمبراطورية كانت وحشاً، وكان يعرف أنه كان جزءاً منها. زكريا تابع بصوت مكسور: بعد ما حدث، بعد أن أحرقوه... لم أنم، كل ليلة كنت أرى وجهه، وجه الشاب ذي العينين العسليتين، كان ينظر إلي، يسألني: لماذا؟ ولم أكن أملك جواباً، كل ما فعلته كان جبناً. جبن. وأنت الآن خائف مرة أخرى. نعم، خائف، لكن ليس من الموت، بل منه، من عينيه، من وجهه، من الحقيقة التي يحملها معه أينما ذهب.

رايان نظر إلى الرجل العجوز أمامه، إلى الخوف في عينيه، إلى الارتجاف في يديه، إلى خمس عشرة سنة من الجبن والندم، ثم قال بصوت هادئ: لم يفت الأوان. ماذا؟ لم يفت الأوان لقول الحقيقة. هو قادم. أعرف. سيأتي إليك كما أتى إلى نادر. أعرف. فماذا ستفعل عندما يدخل من هذا الباب؟ هل ستختبئ؟ هل ستهرب؟ هل ستتوسل؟ أم ستواجهه بالحقيقة؟ زكريا لم يجب، كان ينظر إلى الباب، كأنه ينتظر، كأنه يعرف أن اللحظة اقتربت.

قبل أن يتمكن رايان من الرد، رن الجرس فوق الباب مرة أخرى، الصوت هذه المرة كان أعلى، كأن الباب نفسه يعرف أن الذي دخل ليس زبوناً عادياً. فُتح الباب، ودخل رجل، معطف أسود، قبعة، وقناع أسود يغطي نصف وجهه، عينان عسليتان تلمعان من خلف القناع. الغبار في الهواء تجمد، الضوء في الغرفة صار أثقل، الزمن توقف. زكريا تجمد في مكانه، لم يستطع حتى أن يرتجف، كان كتمثال من خوف.

رايان استدار ببطء، الرجلان وقفا وجهاً لوجه: رايان المورانتي، وجوده الحمصي، لأول مرة منذ خمس عشرة سنة. المسافة بينهما كانت أقل من ثلاثة أمتار، لكنها كانت تحوي عالماً كاملاً، عالماً من الظلم والدم والندم والأسئلة التي لم تجب. صمت ثقيل خيم على المتجر، الهواء صار كثيفاً، الغبار في الضوء صار بطيئاً، كأن الكون كله كان ينتظر هذه اللحظة.

جود نظر إلى رايان، نظر إلى الوريث الذي لم يشارك في الجريمة لكنه ورث كل شيء، إلى الرجل الذي لم يعرف الحقيقة حتى البارحة، إلى الابن الذي كان تلميذاً للبارون وصار عدوه. ثم نظر إلى زكريا، إلى الرجل الذي شهد زوراً، إلى الرجل الذي كان خائفاً، إلى الاسم الثاني في قائمته. وقال بصوت هادئ: زكريا مطر، أتذكرني؟ أم أن القناع يخفي أكثر مما ينبغي؟

زكريا لم يجب، كان يرتجف، ساقاه لم تعودا تحملانه، جلس على الكرسي خلفه. جود اقترب خطوة، ثم قال: لا تخف، لم آت لأقتلك، لم آت لآخذك كما أخذت نادر، بل جئت لأعطيك فرصة. فرصة؟ نعم، فرصة للاعتراف، ليس لي، بل له. أشار إلى رايان. الوريث لم يكن يعرف الحقيقة، الآن يعرف، اعترف له، قل له ما قلته لي الآن، قل له لماذا فعلتها، قل له كم ليلة لم تنم فيها، قل له الحقيقة، كل الحقيقة، ثم دع الخيار له، هو من يقرر، هو الوريث، أنا فقط شاهد على ما حدث.

نظر جود إلى رايان مرة أخرى، طويلاً، ثم قال: التقينا أخيراً يا وريث الإمبراطورية، التقينا بعد خمس عشرة سنة، في متجر تحف صغير، في الحي القديم، ليس في ساحة معركة، ليس في قصر، بل هنا، حيث يختبئ الجبناء، وحيث يبدأ العدل. رايان لم يجب فوراً، كان ينظر إلى جود، إلى القناع، إلى العينين العسليتين خلفه،

إلى الندوب على الجانب الأيمن من
وجهه، الندوب التي لم يخفها
القناع، الندوب التي تروي قصة
كاملة دون كلمات. ثم قال بصوت
هادئ: جود الحمصي. هذا اسمي،
الاسم الذي حاولوا دفنه، الآن
تعرفه. نعم، الآن أعرفه. وماذا
ستفعل به؟ لا أعرف بعد، لكني
أعرف أني مدينٌ لك. مدينٌ؟ نعم،
ليس لأني ظلمتك، لم تظلمني، لم
تشارك، أعرف ذلك، ولهذا أنت
الرجل الوحيد الذي أردت أن يراني،
الوحيد الذي يستحق أن يعرف.
لماذا؟ لأنك الوريث، لأنك ابن البارون
الذي لم تختره، لأنك الوحيد الذي
يمكن أن يفهم أن بعض الظلال لا
تولد من الظلام، بل من النور الذي
حرم منه صاحبها.

صمت رايان، نظر إلى زكريا الذي كان
ما يزال جالساً على كرسيه، وجهه
مدفون بين يديه، ثم نظر إلى جود
مرة أخرى وقال: ماذا تريدني أن
أفعل؟ لا شيء اليوم، اليوم هو يوم
زكريا، هو من سيتكلم، هو من
سيعترف، هو من سيقرر كيف يريد أن
تنتهي قصته. ثم التفت جود إلى
زكريا وقال بصوت لم يكن قاسياً ولا
رحيماً: تكلم يا زكريا، احكِ له ما لم
تقله لأحد، احكِ له كيف كان شكل
الشاب الذي دمرتموه، قبل أن تحرقوا
وجهه، قبل أن تسرقوا اسمه، قبل أن
تجعلوه شبحاً. تكلم، فأنت مدين له
بالحقيقة، ونحن ننتظر.

يتبع...

الفصل الرابع

اعترافات الموتى

زكريا مطر بقي جالساً على كرسيه بلا حراك، الدموع لم تنزل من عينيه لكن صوته كان يختنق، نظر إلى جود أولاً ثم إلى رايان، ثم إلى الأرض، ثم تكلم. قال بصوت مرتجف: البارون استدعاني في تلك الليلة، لم يكن هناك أحد غيره، قال لي إن هناك خائناً في الإمبراطورية، قال إنه يحتاج إلى شاهد، شاهد يثق به الجميع، قال إن اختارني لأني كنت الأضعف، كنت أعرف أنه لا يسأل بل يأمر، كنت أعرف أن الرفض يعني الموت، ليس موتي فقط، بل موت كل من أحبهم. توقف، مسح جبينه بيد مرتجفة، ثم تابع: أعطاني اسماً، اسماً لم أسمعه من قبل، جود الحمصي، قال إن هذا الرجل سرق معلومات حساسة وباعها للشرطة، قال إنه يجب أن يختفي، لم يقل لي لماذا، لم يقل لي كيف عرف، لم يقل لي أي شيء آخر، فقط قال لي: ستشهد أنك رأيته، ستشهد أنك سمعته يخطط، ستشهد أنك وجدت الوثائق في مسكنه، وسألته: وماذا لو سألوا عن دليل؟ قال: الدليل سأصنعه أنا، ما عليك إلا أن تتكلم.

ساد الصمت في المتجر. الغبار كان يرقص في عمود الضوء، رايان كان واقفاً كتمثال، عيناه لم تفارقا زكريا، جود لم يتحرك، لم ينبس بكلمة، كان ينتظر. كان يعرف أن الحقيقة تخرج بصعوبة، كأنها طفل يولد بعد مخاض طويل. زكريا تابع بصوت أخفض: في اليوم التالي، استدعانا البارون جميعاً، نادر كان هناك، وأربعة آخرون، كانوا يعرفون دورهم، كانوا يعرفون ما سيقولونه، كنت أنا أيضاً أعرف، وقفنا أمام الجميع، أمام الإمبراطورية كلها، وقلنا ما طلبه منا، قلنا إننا رأيناه، قلنا إننا سمعناه، قلنا إننا وجدنا الوثائق، والبارون كان واقفاً خلفنا، صامتاً، يراقب، يبتسم.

جود رفع يده فجأة، أوقفه، صوته كان هادئاً لكنه حاد كسكين: وماذا حدث بعد أن تكلمتم؟ ماذا حدث للشاب الذي اتهمتموه؟ زكريا لم يجب فوراً، نظر إلى جود، إلى القناع، إلى العينين العسليتين، إلى الندوب التي تطل من تحت القناع، ثم همس: أخذوه. أخذوه إلى أين؟ إلى المستودع، المستودع القديم عند المرفأ. وماذا فعلوا به هناك؟ ضربوه، سألوه أسئلة لم يكن يعرف إجاباتها، أرادوا منه أن يعترف، لكنه لم يعترف، لأنه لم يفعل شيئاً.

كان بريئاً. ثم ماذا؟ ثم جاء البارون بنفسه، وقف أمامه، نظر إليه طويلاً، ثم قال: أنت لا تصلح أن تكون واحداً منا، أنت لا تصلح أن تكون أي شيء، ثم أشار إلى رجاله، وأشعلوا النار.

سقطت الكلمة كحجر في الماء، رايان أغلق عينيه للحظة، جود لم يتحرك، كان يعرف القصة، كان يعرف كل كلمة فيها، لكن سماعها من فم أحد الجلادين كان شيئاً آخر. زكريا تابع بصوت متهدج: لم أكن هناك عندما أشعلوا النار، أقسم أني لم أكن هناك، كنت واقفاً خارج المستودع، سمعت الصراخ، سمعت صوت النار، سمعت صوت رجل يحترق، لكني لم أتحرك، لم أفعل شيئاً، عدت إلى بيتي، جلست في الظلام، وبقيت هناك حتى الصباح، وفي اليوم التالي قالوا لنا إنه مات، قالوا إن الجثة رميت في النهر، قالوا إن القضية انتهت، لكنها لم تنتهِ، لم تنتهِ أبداً.

جود اقترب خطوة من زكريا، وقف أمامه مباشرة، نظر إليه من فوق، ثم قال بصوت بطيء: جثة في النهر، هكذا ظننتم، هكذا أردتم للعالم أن يظن، لكني لم أمت، النار لم تأخذني، النهر لم يغرقني، سبحت حتى احترقت ذراعي،

سبحت حتى لم أعد أشعر بجلدي، وعندما خرجت من الماء، كنت قد مت بالفعل، مت عن العالم، مت عن اسمي، مت عن كل شيء كنت عليه، وولدت من جديد، ولدت بهذا الوجه، بهذه الندوب، بهذه الحياة التي لم أخترها.

تحول بصره إلى رايان، قال له: والآن تعرف الحقيقة، كل الحقيقة، لم يبق منها شيء مخفي، فماذا ستفعل أيها الوريث؟ رايان رفع رأسه، نظر إلى زكريا أولاً، إلى الرجل الذي كان جباناً قبل خمس عشرة سنة وما يزال جباناً حتى اليوم، ثم نظر إلى جود، إلى الرجل الذي خرج من النار ومن النهر ومن القبر، ثم قال: زكريا مطر، أنت اعترفت، اعترفت بأنك شهدت زوراً، اعترفت بأنك دمرت حياة رجل بريء، اعترفت بأنك كنت أداة بيد البارون، وهذا الاعتراف سيبقى، سيبقى مسجلاً في ذاكرة الإمبراطورية، سيبقى جزءاً من تاريخ العائلة، لن تمحى منه، لن تختفي، لكني لن أعاقبك، لأن عقابك بدأ منذ خمس عشرة سنة، عقابك هو خوفك، عقابك هو لياليك التي لم تنمها، عقابك هو وجهه الذي يطاردك كل ليلة، عقابك هو أنك تعرف أنك دمرت رجلاً بريئاً، وأن هذا الرجل عاد ليراك تجثو على ركبتيك وتعترف.

التفت إلى جود، وقال: هل هذا يكفي؟ جود نظر إلى زكريا طويلاً، إلى الرجل الذي كان جالساً على كرسيه كأنه حطام إنسان، ثم قال: يكفي، هذا أردت، ليس الموت، بل الحقيقة، أن يعرف الجميع أني لم أكن خائناً، أن يعرف الجميع أني لم أكن كذاباً، أن يعرف الجميع أن البارون هو من صنع كل شيء، وأنتم كنتم أدواته، وهذا يكفي.

ثم التفت جود إلى زكريا مرة أخيرة، وقال: ستعيش يا زكريا، ستعيش مع ذكرى ما فعلت، ستعيش مع وجهي الذي لن تنساه، ستعيش مع الحقيقة التي اعترفت بها اليوم، وهذا أقسى عليك من الموت، أليس كذلك؟ زكريا لم يجب، لكن الدموع التي انهمرت أخيراً من عينيه كانت جوابه. جود أدار ظهره للرجل العجوز، مشى نحو الباب، رايان تبعه بصمت، وقبل أن يخرج، توقف جود عند العتبة، قال دون أن يلتفت: اسمان تم، بقي خمسة.

أريد أن يموت الظلم قبل أن أموت، وعندما يصحح كل شيء، لن يكون هناك سبب للبقاء.

ثم أضاف بصوت أخفض: مدينتك جميلة، لكنها مدينة الموتى بالنسبة لي، كل شارع فيها يذكرني بما كنت عليه، كل زاوية فيها تحمل صوت صراخي، كل حجر فيها يعرف أني احترقت هنا، لا أستطيع أن أعيش هنا، ليس بعد ما حدث.

سكت قليلاً ثم قال: لكني سأبقى حتى ينتهي كل شيء، حتى يسمع الجميع الحقيقة، حتى يعرفوا أن جود الحمصي لم يكن خائناً، لم يكن كذاباً، لم يكن ما قالوه عنه، كان مجرد شاب أراد أن ينتمي، فوجد ناراً بدل العائلة، ووحشاً بدل الأب.

رايان لم يجب، لم يجد كلمات، كان يعرف أن ما قاله جود هو الحقيقة، كان يعرف أن بعض الجراح لا تلتئم، أن بعض المدن لا تعود بيوتاً، أن بعض الأرواح لا تستطيع أن تبقى في المكان الذي احترقت فيه.

خرجا معاً إلى الشارع، المطر كان قد توقف تماماً، الشمس كانت عالية في السماء، الحي القديم كان هادئاً، الناس الذين تجمعوا خارج المتجر كانوا قليلين، كانوا يحدقون، يتساءلون، لكن أحداً لم يقترب. جود وقف على الرصيف، نظر إلى السماء، تنفس بعمق، ثم قال: لم يبق إلا خمسة. رايان وقف بجانبه، لم يلمسه، لم يحاول أن يواسيه، فقط قال: لم يبق إلا خمسة، وبعدهم؟ التفت جود إليه، العينان العسليتان خلف القناع كانتا متعبتين، لكنهما كانتا هادئتين: بعدهم سأرحل، سأختفي، سأترك هذه المدينة لأهلها، سأتركك لإمبراطوريتك، سأذهب إلى مكان لا يعرف فيه أحد اسمي، لا جود الحمصي، ولا القناع الأسود.

رايان نظر إليه طويلاً، ثم قال: لماذا؟ لماذا تفعل كل هذا إن كنت سترحل في النهاية؟ جود ابتسم ابتسامة خفيفة، الابتسامة الأولى التي يراها رايان على شفتيه، ثم قال: لأني لا أريد الانتقام، قلت هذا من البداية، أريد التصحيح،

مد يده دون أن يفكر، ليس ليلمس جود، بل ليضعه على كتفه، لكنه توقف في منتصف الطريق، تذكر أنه لا يريد لمسات، لا يريد مواساة، لا يريد شيئاً سوى العدالة. فسحب يده، وقال بدلاً من ذلك: حسناً، خمسة، لنكمل ما بدأناه.

جود أومأ برأسه، ثم ارتدى قبعته، ظلل بها عينيه عن الشمس، وقال: سلمى لديها الملفات، هي تعرف أين هم، هي تعرف متى وكيف، سنفعل ما فعلناه اليوم، مرة بعد مرة، حتى نصل إلى آخر اسم. ثم مشى بعيداً، خطواته كانت هادئة على الرصيف المبلل، لم يلتفت إلى الوراء، لم يودع رايان، كان يعرف أنهما سيلتقيان مرة أخرى، في متجر آخر، في شارع آخر، أمام رجل آخر سيعترف بجريمته. رايان بقي واقفاً أمام متجر التحف، ينظر إلى جود وهو يبتعد، إلى المعطف الأسود، إلى القبعة، إلى الرجل الذي لم يعد شبحاً، الذي صار حياً يمشي تحت الشمس، ويفرض العدالة بطريقته.

يتبع...

الفصل الخامس

السلام

لم يتوقف جود بعد خروجه من متجر التحف. مشى في شوارع الحي القديم بخطوات ثابتة، رايان بجانبه، لا يتكلمان. الشمس صارت في منتصف السماء، الظلال صارت أقصر، والمدينة صارت أكثر ضجيجاً. لم يتوقفا حتى وصلا إلى زاوية شارع خالٍ، بعيداً عن الأعين. هناك، توقف جود فجأة، التفت إلى رايان، وقال بصوت هادئ لكنه مختلف: انتهى دوري.

رايان نظر إليه باستغراب. ماذا تعني بانتهى دورك؟ بقي خمسة. أعرف أنهم خمسة، لكني لن أكمل. لم أفهم. لماذا؟ لأني حصلت على ما أردت. ليس الموت، ليس الخوف، ليس الانتقام. بل الحقيقة. الحقيقة خرجت من فم زكريا مطر، أمامك أنت، وريث الإمبراطورية، ابن البارون، الرجل الوحيد الذي لم يشارك في الجريمة لكنه الوحيد الذي يستطيع أن يشهد على براءتي. هذا يكفي.

رايان صمت، كان ينظر إلى جود كأنه يراه لأول مرة. الرجل الذي ظنه منتقماً، الرجل الذي ظنه يريد الدم، يقف الآن أمامه ويقول إنه اكتفى. جود تابع بصوت أكثر هدوءاً: نادر شاهين اختفى، لكنه ليس ميتاً. هو في مكان بعيد، مع امرأة، مع هوية جديدة، مع حياة جديدة. لن يعود إلى هنا أبداً. وزكريا مطر اعترف، اعترف بكل شيء، اعترف أمامك، وهذا الاعتراف سيبقى. أما الخمسة الباقون، فليعيشوا، لكنهم سيعيشون وهم يعرفون أني عدت، يعرفون أني كنت هنا، يعرفون أن الحقيقة خرجت أخيراً من الظلام. هذا عقابهم. هذا كافٍ. ساد الصمت بينهما، ثم قال رايان بصوت خفيض: وماذا الآن؟ ماذا ستفعل؟ سأرحل، كما قلت لك، سأترك هذه المدينة، سأختفي، ليس كشبح هذه المرة، بل كرجل حي. سأذهب إلى براغ، هناك حيث بدأ كل شيء، هناك حيث احترقت، هناك حيث خرجت من النهر. سأقف على جسر تشارلز مرة أخرى، ليس للانتقام، ليس للذكرى، بل لأقول لنفسي: انتهى. ثم سأعبر الجسر، وسأذهب إلى الجهة الأخرى، ولن أعود.

رايان مد يده دون أن يفكر، لكنه توقف مرة أخرى في منتصف الطريق، تذكر القاعدة: لا لمسات، لا مواساة، لا شيء. فسحب يده، وقال بدلاً من ذلك: أيمكنني أن أفعل شيئاً لك؟ أي شيء؟ جود ابتسم ابتسامة خفيفة، ثم قال: لقد فعلت ما هو أكثر مما تتخيل. أنت استمعت، أنت شهدت، أنت لم تحاول إيقافي أو حمايتهم، أنت تركت العدالة تأخذ مجراها، هذا كل ما أردته.

ثم أضاف بصوت أكثر جدية: لكن هناك شيئاً واحداً. ما هو؟ ابنتك. أمل. رايان تجمد للحظة. ماذا عنها؟ هي لا تعرف شيئاً عن كل هذا، لا تعرف عن الإمبراطورية القديمة، لا تعرف عن البارون، لا تعرف عن الظلم والدم والنار. أريدك أن تبقيها كذلك. لا تخبرها بشيء، ليس الآن، ليس حتى تكبر بما يكفي لتفهم. لا تجعلها تكبر في ظل هذه القصة. دعها تعيش، دعها تختار طريقها بنفسها، لا تجعل ماضينا يصبح مستقبلها.

رايان أومأ برأسه ببطء: هذا ما كنت
أنوي فعله. أعرف، لكني أردت أن
أسمعه منك. ثم رفع جود ياقة
معطفه، استعد للرحيل، لكنه
توقف للحظة أخيرة، نظر إلى
رايان، وقال بصوت بالكاد يُسمع:
أبوك لم يكن أباً، والدي لم يكن
موجوداً، والبارون كان وحشاً. أنت
الرجل الوحيد الذي يشبه أباً في
هذه القصة كلها. لا تكرر
أخطاءهم. كن أباً حقيقياً. ليس
لأمل فقط، بل لنفسك أيضاً.

ثم استدار، ومشى بعيداً. رايان بقي
واقفاً في مكانه، ينظر إلى
المعطف الأسود، إلى القبعة، إلى
الرجل الذي عاد من الموت ليصحح
خطأ، والذي اختار الآن أن يختفي
مرة أخرى. وقبل أن يبتعد جود
كثيراً، نادى رايان بصوت مرتفع

جود. توقف جود، لم يلتفت. قال رايان: شكراً لك. جود لم يجب، لكنه رفع يده اليمنى قليلاً، إشارة صامتة، ثم تابع طريقه.

في شقة جود الحمصي، كانت سلمى تحزم الملفات. لم تكن غاضبة، لم تكن حزينة، كانت فقط تفعل ما تعودت فعله. عندما دخل جود، رفعت رأسها إليه: انتهى؟ انتهى. كل شيء؟ كل شيء. ماذا الآن؟ سنرحل. إلى براغ؟ إلى براغ. وماذا عن الخمسة الباقين؟ سيعيشون. سيعيشون وهم يعرفون، وهذا كافٍ.

سلمى أغلقت الحقيبة، نظرت إليه، إلى القناع الذي لم ينزعه بعد، وقالت: وماذا عن القناع؟ هل ستبقيه؟ جود لمس حافة القناع الأسود بأصابعه، شعر بملمسه البارد،

للمرة الأولى منذ خمس عشرة سنة،
فكر في خلعه. ليس الآن، ليس هنا،
ربما في براغ، ربما هناك، على الجسر،
سأخلعه وأرميه في النهر. وحينها،
سأصبح وجهي فقط، لا جود الحمصي،
ولا القناع الأسود، ولا أي شيء آخر.
فقط وجهي.
حملت سلمى الحقيبة، وفتحت الباب،
وانتظرته. جود نظر حوله في الشقة
للمرة الأخيرة، إلى المرآة، إلى الطاولة،
إلى النافذة التي كان يقف عندها كل
ليلة. ثم خرج، وأغلق الباب خلفه.

في الطريق إلى المطار، لم يتحدثا
كثيراً. المدينة كانت تمر من نافذة
السيارة كشريط ذكريات. لم تكن
مدينة أحلام، لم تكن مدينة سلام،
لكنها كانت المدينة التي ولد فيها جود
مرتين. مرة كطفل، ومرة كناجٍ من
النار. والآن يغادرها للمرة الأخيرة.

في المطار، قبل أن يصعد إلى
الطائرة، توقف جود عند
النافذة الزجاجية الكبيرة، نظر
إلى سماء المدينة، إلى الأبراج
البعيدة، إلى القصر الذي
يعرف أنه هناك في مكان ما.
ثم همس بصوت لم تسمعه
سلمى: خمسة عشر عاماً.
انتهت في أسبوع. ليس لأني
سريع، بل لأن الحقيقة كانت
تنتظر فقط من يجرؤ على
قولها.

ثم التفت، وصعد إلى الطائرة،
وجلس قرب النافذة. وعندما
أقلعت الطائرة، نظر إلى
المدينة من فوق، إلى الشوارع،
إلى المباني، إلى كل شيء
يصغر ويصغر حتى صار
نقطة. ثم أغلق عينيه، ولأول
مرة منذ سنوات طويلة، نام
دون كوابيس.

في قصر المواراتي، عاد رايان إلى مكتبه، جلس على كرسيه، وأخرج المظروف الأسود من درجه. المظروف الذي كان يحتوي على جملة واحدة: واحد تم. نظر إليه طويلاً، ثم وضعه في الدرج، وأغلقه. دخلت لين، سألته: ماذا حدث؟ قال: انتهى. ماذا انتهى؟ قصة جود الحمصي. رحل. إلى أين؟ إلى براغ. قال إنه سيخلع قناعه هناك، على الجسر، وسيرميه في النهر. وماذا عنا؟ نحن سنبقى، سنعيش، وسنربي ابنتنا، وسننسى.

لين اقتربت منه، نظرت إلى عينيه، قالت: وهل ستنسى حقاً؟ رايان نظر من النافذة إلى السماء البعيدة، إلى الطائرة التي ربما كانت ما تزال هناك في مكان ما، ثم قال: لا. لن أنسى. لكني سأتعلم كيف أعيش مع الذكرى.

يتبع...

الفصل السادس

الهدوء الذي يسبق العاصفة

مرت ثلاثة أيام على رحيل جود الحمصي. في قصر المواراتي، عادت الحياة إلى مجراها. الحراس في مواقعهم، الخدم في مهامهم، أمل تذهب إلى مدرستها كل صباح وتعود بعد الظهر. لا تعرف أن رجلاً بقناع أسود كان قد قلب المدينة رأساً على عقب ثم اختفى.

رايان كان يجلس في مكتبه كل ليلة، يراجع ملفات الشركة، يوقع عقوداً، يرد على رسائل، لكنه لم يكن موجوداً حقاً. كان في مكان آخر، في متجر التحف، على الرصيف، في المطار، يراقب رجلاً بقناع أسود يبتعد نحو الأفق. لين لاحظت ذلك، لاحظت صمته الطويل، لاحظت نظراته الممتدة نحو النافذة. لاحظت أنه لم يعد يتحدث عن جود، لكنه لم يتوقف عن التفكير فيه.

في صباح اليوم الرابع، دخلت أمل إلى مكتبه دون أن تطرق الباب. كانت تحمل كتاباً في يدها، كتاباً قديماً بغلاف أسود. رايان رفع رأسه إليها متفاجئاً. أمل، ماذا تفعلين هنا؟ وجدت هذا الكتاب في العلية.

أي كتاب؟ لا أعرف، الغلاف ممزق، الصفحات صفراء، لكنه مكتوب بخط يد. خط يد من؟ لا أعرف، لكن في الصفحة الأولى، هناك اسم: البارون. رايان تجمد، مد يده وأخذ الكتاب منها بهدوء. أمل، أين وجدت هذا بالضبط؟ في صندوق خشبي، في الزاوية البعيدة من العلية، كان مخبأ تحت أغطية قديمة. هل قرأت منه شيئاً؟ لا، فتحت الصفحة الأولى فقط، ثم أغلقت الصفحة.

رايان نظر إلى الكتاب، إلى الغلاف الأسود، إلى الصفحات الصفراء، إلى خط يد البارون. كان يعرف أن هذا الكتاب موجود في مكان ما، كان يعرف أن البارون كتب شيئاً قبل موته، لكنه لم يبحث عنه قط. الآن، وجدته ابنته. وقف ووضع يده على كتفها برفق: أمل، أريدك أن تنسي هذا الكتاب. هل هو سيء؟ ليس بالضرورة، لكنه ليس مناسباً لك الآن. عندما تكبرين، ربما، لكن ليس اليوم. أمل نظرت إليه بعينيها الرماديتين، عيني أبيها، ثم أومأت برأسها.

حسناً يا أبي. ثم خرجت من المكتب، تركت الكتاب في يده، تركت السؤال معلقاً في الهواء: ماذا كان يخفي البارون في صفحاته الأخيرة؟

جلس رايان على كرسيه، فتح الكتاب ببطء. الصفحة الأولى كانت تحمل اسماً وتاريخاً: البارون، براغ، 2014. الصفحات التالية كانت مليئة بخط يده، ليست مذكرات، ليست اعترافات، بل شيء آخر. قواعد. كان البارون يكتب قواعد. رايان قرأ الصفحة الأولى:

القاعدة الأولى: لا تثق بأحد. حتى بنفسك.
القاعدة الثانية: لا تحب أبداً. الحب هو الجرح الذي لا يلتئم.
القاعدة الثالثة: السلطة لا تؤخذ. السلطة تصنع. من لا شيء.
تغيرت القواعد قليلاً؛ او ربما كتب غيرها...

ثم توقف. كان يعرف هذه القواعد. عاشها. كاد أن يموت بسببها. لكنه قلب الصفحة، ووجد شيئاً لم يتوقعه. القواعد لم تتوقف عند الثالثة. كانت هناك قواعد أخرى، مكتوبة بخط مختلف، خط أضعف، خط رجل يحتضر:

القاعدة الرابعة: الابن لا يقتل أباه. لكن الأب قد يقتل ابنه. إذا لم يحبه بما فيه الكفاية.
القاعدة الخامسة: الوحوش لا تولد. الوحوش تصنع. في الظلام. في الخوف. في الجوع.
القاعدة السادسة: لا ترحل إلى براغ. براغ مدينة الموتى. كل من ذهب إليها... مات. أو تمنى لو مات.

رايان توقف. القاعدة السادسة كانت مكتوبة بحبر مختلف، وكأن البارون كتبها في وقت لاحق، ربما بعد أن أطلق عليه رايان الرصاص في الغابة. ربما بعد أن عاد من الموت. كتبها وهو يعرف أن رايان ذهب إلى براغ، وعاد منها حياً. كتبها وهو يعرف أن التلميذ كسر القاعدة.

ثم جاءت القاعدة السابعة والأخيرة. كانت مكتوبة في أسفل الصفحة، بحبر أسود قاتم، وكأن البارون كان يضغط بقلمه بقوة:

القاعدة السابعة: في النهاية، لا يبقى إلا الإرث. ليس المال. ليس السلطة. بل ما تتركه في قلوب من بعدك. إن كان كرهاً... فسيبقى كرهاً. وإن كان... حباً... فربما.

هنا توقف النص. كان البارون قد مات قبل أن يكمل القاعدة السابعة. مات قبل أن يكتب كلمة "الحب" . رايان جلس صامتاً لوقت طويل، الكتاب مفتوح بين يديه، كلمات البارون تنظر إليه من الماضي. كان البارون، في النهاية، يفهم شيئاً. كان يفهم أن الإرث الحقيقي ليس ما يملكه المرء، بل ما يتركه في قلوب الآخرين. رايان نظر من النافذة، تذكر جود الحمصي، تذكر كلماته الأخيرة قبل أن يرحل: "لا تجعل ماضينا يصبح مستقبلها" . ثم نظر إلى الكتاب مرة أخرى، وأغلق الصفحة. كان يعرف أن هذه القواعد، رغم كل شيء، كانت الجزء الأخير من إرث البارون. لكنه كان يعرف أيضاً أن الإرث ليس قدراً. الإرث يمكن أن يتغير. يمكن أن يرفض. يمكن أن يصنع المرء إرثه الخاص.

دخلت لين المكتب في المساء، وجدته ما يزال جالساً، الكتاب على الطاولة. ماذا هناك؟ هذا كتاب البارون، وجدته أمل هذا الصباح. ماذا فيه؟ قواعد. قواعد البارون. القاعدة الأولى... رايان توقف. لين اقتربت منه. القاعدة الأولى: لا تثق بأحد، حتى بنفسك. هل ما تزال تؤمن بها؟ لا، لم أعد، لقد كسرتها منذ زمن طويل، يوم وثقت بك، يوم وثقت بأني أستطيع أن أتغير. ثم فتح الكتاب على الصفحة الأخيرة، على القاعدة السابعة الناقصة، وأراه إياها. قال: انظري. البارون لم يكملها. مات قبل أن يكتب الكلمة الأخيرة. لكني أعرف ما كان سيضعه فيها.

لين قرأت القاعدة السابعة، ثم رفعت رأسها إليه: وماذا كنت ستضع أنت؟ رايان أمسك بقلمه، وضعه على الصفحة، تحت الكلمات الأخيرة للبارون. كتب بخط يده، بحبر أزرق هذه المرة:

" وإن كان... حباً... فربما... يبقى."

ثُم أغلق الكتاب، تركه على الطاولة، ونظر
إلى لين. كان يعرف أن القاعدة السابعة
اكتملت، ليس بيد البارون، بل بيده هو.
قاعدة جديدة، قاعدة أخيرة، قاعدة تقول إن
الحب ليس جرحاً لا يلتئم. الحب، ربما، هو
الشيء الوحيد الذي يبقى.

يتبع...

الفصل السابع

رسالة من الشرق

كان رايان جالساً في مكتبه والدفتر الأسود ما يزال مفتوحاً على الطاولة أمامه. القاعدة السابعة التي أكملها بخط يده كانت ما تزال تلمع تحت الضوء، حبرها الأزرق طرياً كأنه لم يجف بعد. مرت ثلاثة أيام منذ أن وجدت أمل الدفتر في العلية، ثلاثة أيام منذ أن قرأ رايان قواعد البارون للمرة الأولى، ثلاثة أيام وهو يحاول أن يفهم لماذا ترك البارون هذا الدفتر بالذات مخبأ في قصر تلميذه. هل كان يريد أن يجده رايان؟ هل كان يريد أن يقرأه؟ هل كان يريد أن يكمل القاعدة السابعة؟ أسئلة بلا إجابات، ككل شيء تركه البارون خلفه. الماضي كان يرفض أن يموت، كان يطل برأسه كلما ظن الجميع أنه دفن. رايان كان يعرف ذلك، كان يشعر به في عظامه، في صمته الطويل، في نظراته الممتدة نحو النافذة. لين كانت تراقبه من بعيد، لم تسأله عن شيء، كانت تعرف أن هناك شيئاً ثقيلاً يدور في عقله، شيئاً لم يشاركها إياه بعد. لكنها كانت تنتظر، كانت تعرف أنه سيأتي إليها حين يكون مستعداً.

في صباح اليوم الرابع. تغير كل شيء. كان رايان في غرفة المراقبة مع عزيز، يراجعان تسجيلات الكاميرات من الليلة السابقة. كل شيء كان طبيعياً. الحراس في مواقعهم، الكلاب في الحديقة، لا حركة غير عادية. ثم جاء الإنذار. لم يكن إنذاراً من البوابات، ولا من أجهزة الحركة في الحديقة، بل كان إنذاراً من الحاسوب، من البريد الإلكتروني الرسمي للشركة. عزيز كان أول من رآه، كان وجهه شاحباً وهو يقرأ الشاشة. سيدي، هناك رسالة. رايان اقترب منه، نظر إلى الشاشة. كانت رسالة إلكترونية، من عنوان مجهول، مشفر، لا يمكن تتبعه. عنوان المرسل كان سلسلة من الأرقام والحروف، كأنها شيفرة. عنوان الرسالة كان كلمة واحدة: إرث. رايان فتحها، قرأها، ثم تجمد.

كانت الرسالة مكتوبة بالعربية، بلغة أنيقة لكنها باردة كالحديد. إلى وريث الإمبراطورية، من الشرق، مع التحية. سمعنا عن الزائر الذي أتى إلى مدينتك. سمعنا عن القناع الأسود. سمعنا عن الرجال الذين اعترفوا، والذين اختفوا، والذين تركتهم يعيشون. سمعنا كل شيء.

. لا تظن أن المسافة تخفينا عنك. لا تظن أن موت البارون أنهى كل شيء. البارون كان بداية، لم يكن نهاية. هناك ما هو أكثر مما تعرف. هناك ما هو أعمق مما تتخيل. هناك إرث آخر، إرث لم تلمسه بعد، إرث لم يكتشفه حتى جود الحمصي. نحن حراس هذا الإرث، نحن من بقي، ونحن قادمون. ليس للانتقام، بل للاستعادة. استعادة ما سرق منا. استعادة ما أخذه الوريث. قريباً، سترى. قريباً، سنطرق بابك. ليس كماضٍ، بل كمستقبل. انتظرنا.

رايان رفع عينيه عن الشاشة، نظر إلى عزيز. من أرسل هذه؟ لا أعرف، العنوان مشفر، والخوادم التي مرت بها موجودة في ثلاث دول مختلفة. من يعرف عن جود؟ من يعرف عن القناع الأسود؟ لا أحد، لم ننشر شيئاً، لم نخبر أحداً خارج القصر. يعني أنهم كانوا يراقبون. يراقبون منذ البداية. منذ أن عاد جود، منذ أن اختفى نادر شاهين، منذ أن اعترف زكريا مطر في متجر التحف. كانوا يعرفون كل شيء. كانوا ينتظرون فقط اللحظة المناسبة ليتكلموا.

عزيز سأل بصوت منخفض: من هم هؤلاء؟ رايان قام من كرسيه، مشى نحو النافذة، نظر إلى الحديقة المضاءة بشمس الصباح. كان المشهد هادئاً، جميلاً، لكنه شعر فجأة أن ثمة عيوناً تراقب من وراء الأشجار. لا أعرف، لكني سأعرف. أريد أن تبحث في كل شيء. كل ما يتعلق بالبارون في الشرق، كل الرجال الذين كانوا معه هناك، كل الممتلكات، كل الحسابات، كل شيء. لا تترك ورقة إلا واقلبها. عزيز كتب كل شيء في دفتره، ثم خرج من الغرفة مسرعاً.

بقي رايان وحده في غرفة المراقبة، الشاشات أمامه تعرض صور القصر من كل زاوية، لكنه لم يكن يراها. كان يرى شيئاً آخر. كان يرى الشرق، قصر البارون على الجرف، البحر في الأسفل، الأمواج تضرب الصخور. كان يرى نفسه واقفاً هناك قبل سنوات، عندما جاء لمواجهة البارون للمرة الأخيرة. كان يرى البارون جالساً على عرشه، عجوزاً، وحيداً، يطلب السماح.

كان يعتقد أن تلك كانت النهاية. كان يعتقد أن موت البارون أغلق الصفحة الأخيرة. لكن اتضح الآن أن الصفحات كانت أكثر مما تصور. اتضح أن الكتاب كان أطول، وأن الإرث كان أعمق، وأن البارون لم يمت حقاً. لقد ترك شيئاً خلفه، شيئاً في الشرق، شيئاً لم يعرفه أحد، والآن هذا الشيء يستيقظ.

في تلك الليلة، لم ينم رايان. جلس في مكتبه حتى الفجر، والرسالة ما تزال مفتوحة على حاسوبه، كلماتها تحترق في ذهنه. كان يقرأها مرة بعد مرة، يحاول أن يستشف منها شيئاً، أي تلميح عن المرسل، أي إشارة إلى هويته. حراس الإرث. من هم؟ كم عددهم؟ ماذا يريدون بالضبط؟ قالوا إنهم لا يريدون الانتقام، بل الاستعادة. استعادة ماذا؟ الإمبراطورية؟ لكن الإمبراطورية لم تعد موجودة. رايان حولها إلى شركة قانونية، إلى أعمال نظيفة، إلى شيء لا علاقة له بالدم والموت. فماذا يريدون أن يستعيدوا؟

هل يريدون المال؟ السلطة؟ أم يريدون شيئاً آخر، شيئاً لا يعرفه حتى رايان نفسه؟

فكر في كل ما يعرفه عن البارون. البارون الذي مات في قصره على البحر، وحيداً، تاركاً وصية بسيطة: القصر لرايان. لم يكن هناك شيء آخر في الوصية، لا أموال مخفية، لا أسرار مدفونة. فقط القصر. لكن ربما الوصية لم تكن كل شيء. ربما كان هناك إرث آخر، إرث لم يكتب في الوصية، إرث تركه البارون لحراسه، لتلاميذه الآخرين، لأبنائه الذين لم يعرفهم رايان قط. أبناء آخرون. تلاميذ آخرون. البارون كان صانعاً للرجال، كان يصنعهم كما يصنع النحات التماثيل. رايان كان أحدهم، جود الحمصي كان ضحية أخرى من ضحاياه، لكن ربما كان هناك آخرون. ربما كان هناك من تدربوا في الظل، بعيداً عن الإمبراطورية، بعيداً عن براغ، بعيداً عن كل شيء. ربما كانوا ينتظرون فقط موت البارون ليظهروا.

في صباح اليوم التالي، استدعى رايان عزيز إلى مكتبه. أريد أن تعزز الحراسة على القصر. ليس فقط على البوابات، بل على كل مدخل، كل نافذة، كل جدار. أريد كاميرات جديدة، وأجهزة إنذار، ورجالاً إضافيين في المناوبة الليلية. عزيز كتب كل شيء. ثم سأل: وماذا عن أمل؟ رايان توقف. ابنته. كانت دائماً في قلبه، لكنه الآن شعر بثقل جديد. أمل. أريد حماية مضاعفة لها. في المدرسة، في الطريق، في القصر. لا تتركها وحدها أبداً. لا تسمح لأحد غريب بالاقتراب منها. لا تثق بأي شخص، حتى لو بدا مألوفاً. عزيز أومأ برأسه. ثم سأل: هل تعتقد أنهم قد يستهدفونها؟ رايان نظر إليه، عيناه الرماديتان كانتا باردتين: لم يعودوا يستهدفونني أنا. أنا لم أعد الوريث الوحيد. أمل هي الوريثة الآن. إن أرادوا ضربي، فسيضربونها.

بعد أن خرج عزيز، جلس رايان وحيداً مرة أخرى. فتح درج مكتبه، أخرج صورة قديمة. كانت صورة أمل وهي طفلة صغيرة، تحملها لين بين ذراعيها. كانا في الحديقة، تحت شجرة الستارية، في يوم مشمس. كان كل شيء بسيطاً حينها. كان الخطر بعيداً. كان العالم آمناً. لكن ذلك العالم لم يعد موجوداً. رايان أعاد الصورة إلى الدرج، وأغلق عينيه. تذكر كلمات البارون في دفتره: لا تثق بأحد، حتى بنفسك. كان قد كسر هذه القاعدة. وثق بلين، وثق بأمل، وثق بأنه يستطيع أن يعيش حياة طبيعية. والآن، تأتيه رسالة من الشرق تقول إن الإرث لم ينتهِ، وإن حراسه قادمون، وإن المستقبل ليس آمناً كما ظن.

في تلك الليلة، جلس رايان مع لين في الحديقة الشتوية. كان المكان هادئاً، المصابيح خافتة، النجوم بدأت تظهر في السماء. أخبرها بكل شيء. بالرسالة، بالتهديد، بالإرث الآخر الذي لم يكتشف بعد.

لين استمعت دون أن تقاطعه. عندما أنهى كلامه، قالت بصوت هادئ: ماذا سنفعل؟ رايان أمسك بيدها. لم تكن لفتة رومانسية، بل كان يحتاج إلى شيء ثابت، شيء حقيقي، في عالم بدأ يتحرك من حوله. سنفعل ما فعلناه دائماً. سنستعد. سنواجه. سنحمي أمل. لا يهمني ما يبقى من الإمبراطورية. لا يهمني إرث البارون. ما يهمني هو هذه العائلة. هذا البيت. هذا ما سأحميه. لين ضغطت على يده. كانت تعرف أنه صادق. كانت تعرف أنه مستعد. لكنها كانت تعرف أيضاً أن بعض العواصف لا يمكن توقعها.

مرت ثلاثة أيام أخرى، والمعلومات بدأت تصل من الشرق. كانت شحيحة، متقطعة، لكنها كانت كافية لترسم صورة أولية. في قصر البارون على البحر، لم يكن البارون يعيش وحيداً كما ظن الجميع. كان هناك آخرون. تلاميذ آخرون.

أبناء آخرون. لم يكونوا مثله، لم يكونوا مثل رايان. كانوا مختلفين. كانوا أصغر. كانوا أكثر خفاءً. لم يظهروا في الإمبراطورية أبداً. كانوا يعملون في الظل، يحمون شيئاً، ينتظرون شيئاً. وعندما مات البارون، لم يختفوا. عادوا إلى مدنهم، إلى قراهم، إلى جبالهم. لكنهم بقوا على اتصال. بقوا منظمين. بقوا ينتظرون اللحظة المناسبة للعودة. والآن، ها هي اللحظة. ها هم عادوا.

كان رايان يقرأ هذه التقارير في مكتبه، وعزيز واقف أمامه. كان هناك اسم تكرر في التقارير، اسم لم يسمعه رايان من قبل. كيريل. كيريل فولكوف. رجل في الأربعين، من أصول مختلطة، أب روسي وأم من البلاد. كان أحد تلاميذ البارون في الشرق، لكنه لم يكن تلميذاً عادياً. كان مختلفاً. كان الأقرب إليه. كان الابن الذي لم يعترف به البارون قط. عزيز وضع صورة أمام رايان. كانت صورة رجل بملامح حادة، شعر أشيب قليلاً، عينان زرقاوان باردتان كالسماء في الشتاء. هذا هو كيريل. ماذا نعرف عنه؟

لا شيء تقريباً. اختفى بعد موت البارون. لم يظهر في أي مكان. لا حسابات بنكية، لا سفر، لا اتصالات. كأنه شبح. لكنه ليس شبحاً. أعتقد أنه هو من أرسل الرسالة. أعتقد أنه هو من يقودهم.

رايان نظر إلى الصورة طويلاً. كان الرجل في الصورة يشبه البارون. ليس في الملامح، بل في النظرة. في العينين. في الطريقة التي ينظر بها إلى الكاميرا، كأنه يعرف كل شيء، كأنه ينتظر شيئاً. كان هذا هو الخطر الحقيقي. لم يكن جود الحمصي، لم يكن رجال البارون القدامى، بل كان هذا الرجل، كيريل فولكوف، ومن معه من حراس الإرث. رايان أغلق عينيه. كان يعرف أن ما يأتي ليس بسيطاً. لم تكن مجموعة من الشهود الجبناء. كان تنظيماً. كانوا ينتظرون منذ سنوات. والآن، ها هم يتحركون.

في اليوم التالي، وصلت رسالة أخرى. لم تكن إلكترونية هذه المرة. كانت رسالة ورقية، في مظروف أبيض، مختوم بشمع أحمر. وجدها عزيز على بوابة القصر صباحاً. لم يرَ أحداً يضعها، لم تسجل الكاميرات أي حركة. كان المظروف بلا اسم، لكن رايان عرف أنه له. فتحه. في داخله، ورقة واحدة، مكتوب عليها بخط أنيق، أسود، نفس خط الرسالة الإلكترونية. لكن هذه المرة، كانت الرسالة أقصر. كانت موجهة إليه شخصياً. إلى رايان الموراتي.

نحن نعرف عن ابنتك. لا تخف عليها. لم نأتِ للأطفال. جئنا للكبار. جئنا للوريث. أنت تعرف الآن من نحن. أنت تعرف الآن ماذا نريد. لم يبق إلا أن نلتقي. المكان: قصر البارون. الزمان: بعد أسبوع. تعال وحدك. لا تحضر أحداً. لا تحضر أسلحة. تعال لتسمع ما لم يقله البارون. تعال لترى الإرث الذي لم تكتشفه. نحن في انتظارك. حراس الإرث.

رايان طوى الورقة ببطء. كان يعرف الآن. اللقاء لم يكن اختيارياً. كان استدعاءً. كان تحدياً. كان فرصة لمعرفة الحقيقة، الحقيقة التي ربما لم يرد البارون أن يعرفها أحد. نظر إلى عزيز: جهز الطائرة. سيدي، إلى أين؟ إلى الشرق. إلى قصر البارون. وحيداً؟ وحيداً. لكنهم قد ينصبون لك فخاً. قد يكون هذا كميناً. أعرف. لكني سأذهب. لأني أريد أن أعرف. أريد أن أعرف ما هو هذا الإرث الذي يتحدثون عنه. أريد أن أعرف من هو كيريل فولكوف. أريد أن أرى بأم عيني ما تركه البارون خلفه.

في تلك الليلة، وقف رايان أمام نافذة غرفته، ينظر إلى الحديقة المضاءة، إلى الأشجار، إلى السماء. تذكر جود الحمصي. تذكر كلماته: لا تجعل ماضينا يصبح مستقبلها. كان جود يتحدث عن أمل. كان يريد حمايتها. لكن رايان الآن فهم شيئاً آخر. لم يكن الماضي مجرد ذكرى. كان الماضي بذرة. بذرة زرعها البارون في الشرق، وسقاها بالدم، وتركها تنمو في الظلام. والآن، بعد كل هذه السنين، بدأت البذرة تثمر. لم يعد السؤال: كيف نوقف القادم؟ بل: كيف نحمي ما تبقى، ونحن لا نعرف حتى ماذا سيأتي؟

لين دخلت الغرفة، وجدته واقفاً. لم تسأله عن شيء. كانت تعرف. وقفت بجانبه، ونظرت معه إلى الحديقة. لم يتبادلا الكلمات، لم يتبادلا اللمسات. فقط وقفا معاً، في مواجهة الليل، في مواجهة المجهول، في مواجهة إرث لم ينتهِ بعد. رايان قال بصوت خفيض: سأذهب إلى الشرق. لين لم تجب فوراً. ثم قالت: متى؟ بعد يومين. وحدك؟ وحدي. هل تثق بهم؟ لا. لكني لا أثق أيضاً بأني سأعرف الحقيقة إن لم أذهب.

هناك شيء تركه البارون، شيء لم نعرفه قط. ربما هو الخطر، وربما هو الخلاص. لن أعرف حتى أذهب. لين أومأت برأسها ببطء. كانت تعرف أن رايان لا يخاف. كان الخوف قد فارقه منذ زمن طويل، منذ براغ، منذ الغابة، منذ أن ترك البارون في الثلج. لكنها كانت تعرف أيضاً أن الشجاعة ليست غياب الخوف، بل هي المضي قدماً رغم وجوده.

وفي مكان ما، في الشرق، في مدينة صغيرة على سفح جبل، كان رجال يجتمعون في غرفة خافتة الضوء. لم يكونوا يرتدون أقنعة. لم يكونوا يخفون وجوههم. كانوا عاديين. وجوه عادية، ملابس عادية، حياة عادية. لكنهم كانوا يحملون في قلوبهم شيئاً غير عادي. إرثاً. وعداً. مهمة. على الطاولة، كانت هناك خريطة. لم تكن خريطة للمدينة التي يعيش فيها رايان. كانت خريطة للقصر. لقصر المواراتي.

وكانت هناك علامات. على البوابات. على النوافذ. على غرفة أمل. كيريل فولكوف جلس على رأس الطاولة، عيناه الزرقاوان تلمعان في الضوء الخافت. قال بصوت هادئ لكنه يحمل ناراً باردة: الرجل الذي ظن أنه الوريث لا يعرف شيئاً. لا يعرف عن الإرث. لا يعرف عنا. لا يعرف عن اليوم الذي سيكتشف فيه الحقيقة كاملة. حان الوقت ليعرف. حان الوقت لنذكره من نحن. حان الوقت لنستعيد ما هو لنا.

ثم رفع كوباً أمامه، ونظر إلى الرجال حوله، وقال: إلى اللقاء القريب، يا وريث الإمبراطورية.

يتبع...

الفصل الثامن

إرث البارون

أقلعت الطائرة عند الفجر. رايان جلس قرب النافذة. المدينة كانت تصغر تحته. الأبراج، الجسور، القصر، كل شيء كان يبتعد. لم يصطحب معه أحداً. لم يحمل سلاحاً. لم يخبر أحداً سوى لين وعزيز. كان يعرف أن هذه الرحلة ليست للقتال، بل للفهم. كان يريد أن يعرف ما هو هذا الإرث الذي يتحدثون عنه. كان يريد أن يرى كيريل فولكوف وجهاً لوجه، أن يسمع صوته، أن يقرأ عينيه. كان يعرف أن الذهاب وحده مخاطرة، لكنه كان يعرف أيضاً أن الذهاب مع حراس مسلحين سيجعله يبدو خائفاً، والخوف لم يكن ترفاً يمكنه تحمله الآن.

حطت الطائرة في مطار صغير على الساحل. كان المطار شبه مهجور، مهبط واحد، برج مراقبة صغير، ريح باردة تحمل رائحة البحر والملح. رايان نزل من الطائرة. الهواء كان بارداً رغم الشمس، كان مختلفاً عن هواء مدينته،

كان أثقل، كان أقدم. في نهاية المهبط، كانت هناك سيارة سوداء تنتظر، بجانبها رجل يرتدي بدلة داكنة، لم يكن عزيزاً، لم يكن أحداً من رجاله، كان غريباً، لكنه كان يقف كأنه يعرف أن رايان سيأتي. فتح الباب الخلفي دون أن يتكلم. رايان صعد إلى السيارة دون أن يسأل.

الطريق إلى قصر البارون كان طويلاً، معبداً، يمر عبر غابات صنوبر كثيفة وتلال صخرية. البحر كان يظهر ويختفي بين الأشجار، رمادياً تحت ضوء الصباح. رايان كان صامتاً، ينظر من النافذة، يتذكر. آخر مرة جاء فيها إلى هذا الطريق كانت منذ سنوات، عندما جاء مع لين، عندما جاء لمواجهة البارون للمرة الأخيرة. كان الجو حينها مختلفاً، كان هناك خوف، كان هناك غضب، كان هناك أمل. الآن، لم يكن هناك شيء من ذلك. فقط فضول ثقيل، وإحساس بأن شيئاً كبيراً ينتظره في نهاية هذا الطريق.

وصلت السيارة إلى بوابة حديدية قديمة. كانت البوابة مفتوحة، تصر تحت وطأة الريح. خلفها، كان قصر البارون. لم يتغير كثيراً منذ آخر مرة رآه فيها رايان. كان ما يزال قوطياً، قديماً، مبنياً على جرف صخري يطل على البحر.

الأمواج كانت تضرب الصخور في الأسفل كدقات قلب غاضب. النوافذ كانت مظلمة، لكن المدخل كان مضاءً بمصابيح خافتة. الباب الرئيسي كان مفتوحاً. كانوا ينتظرونه.

نزل رايان من السيارة. وقف أمام القصر، نظر إلى الجدران الحجرية، إلى الأبراج المدببة، إلى النوافذ التي تشبه عيوناً ميتة. كان يعرف هذا المكان. كان قد دخله من قبل. كان قد واجه البارون فيه. كان قد سمعه يطلب السماح. والآن ها هو يعود. ليس لمواجهة البارون، بل لمواجهة من ورثوا إرثه.

دخل القصر. الردهة كانت واسعة، باردة، مضاءة بمصابيح حديدية على الجدران. في نهاية الردهة، كان هناك باب خشبي ضخم، مفتوح. خلفه، القاعة الكبرى. القاعة التي جلس فيها البارون على عرشه. القاعة التي شهدت النهاية. دخل رايان.

في القاعة، لم يكن هناك عرش. كان البارون قد مات، والعرش أزيل. لكن في وسط القاعة، كانت هناك طاولة خشبية طويلة،

حولها كراسي. وعلى الكراسي، جلس خمسة رجال. لم يكونوا كباراً، لم يكونوا عجائز. كانوا في الأربعينيات، في الخمسينيات، رجال في ذروة قوتهم. وجوههم كانت مختلفة، لكن عيونهم كانت متشابهة. كانت تحمل نفس النظرة. نظرة البارون.

في رأس الطاولة، جلس رجل بملامح حادة، شعر أشيب قليلاً، عينان زرقاوان باردتان. كان يرتدي بدلة داكنة، وكان هادئاً كالبحر قبل العاصفة. رايان عرفه فوراً من الصورة التي أرسلها عزيز. كيريل فولكوف.

كيريل رفع عينيه إلى رايان. لم يبتسم. لم يغضب. كان هادئاً تماماً، كرجل ينتظر منذ زمن طويل ولم يعد في عجلة من أمره. قال بصوت عميق: أخيراً، وريث الإمبراطورية. لقد أتيت. رايان وقف عند الطرف الآخر من الطاولة، لم يجلس. لماذا تريدني هنا؟ كيريل أشار إلى الكرسي المقابل له: اجلس. هناك الكثير لتسمعه. رايان تردد للحظة، ثم جلس.

كيريل وضع يديه على الطاولة، نظر إلى الرجال الجالسين حوله، ثم عاد بنظره إلى رايان. قال: اسمي كيريل فولكوف.

وهؤلاء هم إخوتي. ليسوا إخوتي بالدم، بل بالعهد. نحن حراس الإرث. الإرث الذي تركه البارون. الإرث الذي لم تعرفه أنت. رايان قال بصوت بارد: البارون ترك قصراً، ووصية، ولا شيء آخر. كيريل ابتسم ابتسامة خفيفة: هذا ما تركه لك. لكنه لم يتركك كل شيء. هناك إرث آخر. إرث لم يكتب في الوصية. إرث لم يعرفه أحد سوانا. نحن هنا لنخبرك عنه.

ساد الصمت. أحد الرجال الجالسين، رجل بوجه نحيف وشعر أسود، فتح ملفاً أمامه. لكن كيريل رفع يده، أوقفه. قال: قبل أن نبدأ، أريد أن أسألك سؤالاً. ماذا تعرف عن والدك الحقيقي؟ رايان تجمد. السؤال لم يكن متوقعاً. لم يكن أحد يسأله عن والده. والده الحقيقي مات قبل أن يولد رايان. لم يعرفه قط. لم يره قط. البارون هو الأب الوحيد الذي عرفه، رغم أنه لم يكن أباً حقيقياً. قال رايان بصوت متوتر: لم أعرفه. مات وأنا طفل. كيريل أومأ برأسه ببطء، كأنه يعرف الإجابة مسبقاً. ثم قال: وماذا لو أخبرتك أن والدك لم يمت كما قالوا لك؟ ماذا لو أخبرتك أن والدك عاش حتى وقت قريب؟ ماذا لو أخبرتك أن والدك... هو البارون؟

الكلمات سقطت كحجارة في الماء. رايان شعر بأن الغرفة دارت به. البارون؟ والده؟ كان هذا مستحيلاً. البارون كان معلمه، كان سجانه، كان جلاده، لكنه لم يكن والده. والده مات. هكذا قالت له أمه. هكذا عاش طوال حياته. كيريل لاحظ الارتباك في عينيه، فتابع بصوت هادئ: البارون لم يخبرك أبداً، أليس كذلك؟ حتى وهو على فراش الموت، حتى وهو يطلب السماح، لم يخبرك. لماذا؟ لأنه لم يستطع. لأنه كان يعرف أن الحقيقة ستدمر كل شيء بناه معك. كان يريدك أن تكون تلميذاً، أن تكون وريثاً، أن تكون شيئاً صنعه هو. لا شيئاً ورثه عن دمه.

رايان وقف فجأة، كرسيه اندفع إلى الوراء. صوته كان أعلى مما أراد: هذا غير صحيح. أمي قالت لي إن والدي مات. البارون لم يكن... لم يكن أبي.

كيريل لم يتحرك، بقي جالساً، عيناه الزرقاوان مثبتتان على رايان. قال: أمك كانت تحميك. كانت تعرف من هو البارون. كانت تعرف أنه تركها، تركك، وذهب ليبني إمبراطوريته. قالت لك إنه مات لأن الموت كان أرحم من الحقيقة. أرحم من أن تعرف أن أباك كان وحشاً.

رايان كان واقفاً، يداه ترتجفان، أنفاسه متقطعة. كان يريد أن يصرخ، أن ينفي، أن يرفض. لكنه كان يعرف، في مكان ما عميق داخله، أن ما يقوله كيريل قد يكون صحيحاً. كان هناك دائماً شيء غريب في علاقته بالبارون. شيء يتجاوز المعلم والتلميذ. شيء يشبه الحب المكسور. شيء يشبه العائلة.

كيريل تابع بصوت هادئ، كأنه يقرأ من كتاب غير مرئي: البارون كان له ثلاثة أبناء. الأول، أنت. ابن الدم. الابن الذي تركه خلفه عندما ذهب ليبني إمبراطوريته. الابن الذي عاد إليه لاحقاً، ليس كأب، بل كمعلم. الابن الذي جعله وريثاً لكل شيء. الثاني، جود الحمصي. ليس ابن الدم، بل ابن الروح. الشاب الذي أراد أن ينضم إلى الإمبراطورية، الذي أراد أن يثبت نفسه. البارون رآه، رأى فيه شيئاً من نفسه، شيئاً من طموحه، فدمره. ليس لأنه كان يكرهه، بل لأنه كان يذكره بنفسه. والثالث... أنا. كيريل فولكوف. ابن العهد. التلميذ الذي بقي في الظل. التلميذ الذي لم يظهر للإمبراطورية أبداً. أنا من تدربت في الشرق، بعيداً عن براغ، بعيداً عن كل شيء. أنا من ورثت الإرث الآخر. الإرث الذي لم تعرفه أنت.

رايان جلس ببطء، ساقاه لم تعودا تحملانه. كان ينظر إلى كيريل، إلى الرجال حوله، إلى القاعة، إلى كل شيء. كان العالم يتفكك من حوله، الحقيقة التي عاشها طوال حياته كانت تنهار قطعة قطعة.

البارون لم يكن مجرد معلم. كان أباه. كان أباه الذي تركه، ثم عاد ليصنع منه وحشاً. كان أباه الذي حاول قتله، وتركه في الثلج، ثم عاد يطلب السماح. كان أباه الذي مات، وترك وراءه أبناء آخرين، وإرثاً آخر، وأسراراً لم تنتهِ.

كيريل وقف من كرسيه، مشى نحو النافذة، البحر كان يلمع تحت ضوء الشمس. قال بصوت هادئ: لا أريد الانتقام منك يا رايان. أنت أخي، رغم كل شيء. ما أريده هو الاعتراف. الاعتراف بأن الإرث ليس لك وحدك. بأن البارون لم يترك كل شيء لابنه الأول. هناك أبناء آخرون. هناك إرث آخر. ونحن نريد نصيبنا.

رايان رفع رأسه، عيناه الرماديتان كانتا تقدحان. ماذا تريدون بالضبط؟ كيريل التفت إليه: نريد ما وعدنا به البارون. ليس القصر. ليس الشركة. ليس الأموال. بل الاسم. الاسم الذي حُرمنا منه. نريد أن نعرف، أن يعرف العالم، أننا أبناء البارون. ورثته الحقيقيون. ليس فقط الوريث الذي اختاره.

رايان صمت. كان يفهم الآن. لم يكونوا يريدون المال، لم يكونوا يريدون السلطة. كانوا يريدون الاعتراف. يريدون أن يكونوا جزءاً من القصة. يريدون ألا يموتوا في الظل كما عاشوا. نظر إلى الرجال حول الطاولة، إلى وجوههم، إلى عيونهم التي تحمل نفس نظرة البارون. ثم قال بصوت خفيض: البارون لم يخبرني أبداً. لم يخبرني عنكم. لم يخبرني عن أي شيء. كل ما عرفته عنه كان كذبة. حياته كانت كذبة. موته كان كذبة. والآن، أنتم جئتم لتطلبوا الاعتراف من رجل لا يعرف حتى من هو.

كيريل عاد إلى الطاولة، جلس مرة أخرى. قال: نحن لا نلومك. أنت أيضاً كنت ضحية. كنت ضحيته كما كنا جميعاً. لكن الفرق بيننا هو أنك حصلت على اسمه. حصلت على الإمبراطورية. حصلت على القصر. ونحن... لم نحصل على شيء. حتى اعترافه. حتى اعترافه بأننا أبناؤه.

رايان نظر إلى الطاولة، إلى الخشب العتيق، إلى الشموع. قال: وماذا تريدونني أن أفعل؟ كيريل قال: نريدك أن تعترف بنا. ليس للعالم. ليس للشركة. بل لنفسك. اعترف بأن البارون لم يكن ملكاً لك وحدك. اعترف بأن هناك آخرين حملوا اسمه في الظل. اعترف بأننا إخوتك، رغم كل شيء.

ساد الصمت مرة أخرى. رايان كان ينظر إلى الرجال، إلى كيريل، إلى البحر خارج النافذة. كان يعرف أن هذا اللقاء لم يكن كميناً، لم يكن فخاً. كان لقاء عائلة. عائلة مفككة، مشوهة، صنعها وحش، لكنها ما تزال عائلة. رفع رأسه، نظر إلى كيريل، وقال: حسناً. أنتم أبناء البارون. أنتم إخوتي. أعترف بذلك. ليس لأني أريد، بل لأن الحقيقة تستحق أن تقال. البارون لم يخبرني عنكم، لكني الآن أعرف. ولن أنسى.

كيريل أومأ برأسه ببطء. لم يبتسم، لكن شيئاً في عينيه تغير. قال: هذا كل ما أردناه. ثم رفع يده، أشار إلى الرجال. فتح أحدهم الملف الذي كان أمامه. كان هناك وثائق، أوراق قديمة، رسائل بخط يد البارون. كلها أدلة على وجودهم، على علاقتهم به. كيريل قال: هذه نسخ مما تركه لنا. يمكنك أن تأخذها. اقرأها. اعرف الحقيقة كاملة. ثم افعل بها ما تريد. نحن لا نريد أكثر مما حصلنا عليه اليوم. الاعتراف.

رايان أخذ الأوراق، طواها، وضعها في معطفه. وقف. كيريل وقف أيضاً. الرجلان نظرا إلى بعضهما طويلاً. كانا مختلفين في كل شيء، لكنهما كانا يحملان نفس الدم، نفس الإرث، نفس الجرح. رايان قال بصوت هادئ: إلى أين ستذهبون الآن؟ كيريل قال: سنبقى هنا. هذا القصر كان بيته. سنحافظ عليه. ليس للإمبراطورية، بل للذكرى.

ثم أضاف بصوت أخفض: وعندما تكون مستعداً، تعال. تعال لترى الإرث الذي لم تكتشفه بعد. هناك أشياء لم تقرأها بعد. أشياء تركها لك. أشياء عن أمك. عن طفولتك. عن كل ما ظننت أنك تعرفه.

رايان أومأ برأسه، ثم استدار. مشى نحو الباب، توقف عند العتبة، التفت للمرة الأخيرة. قال: أنا لست البارون. لن أكون مثله. لن أكرر أخطاءه. أنا رايان الموراتي. فقط رايان. كيريل نظر إليه، وقال بصوت خفيض: أنت ابنه، رغم كل شيء. لكنك أيضاً ابن أمك. لهذا أنت مختلف. اذهب. عد إلى عائلتك. عد إلى ابنتك. نحن سنكون هنا، في الظل، كما كنا دائماً.

خرج رايان من القصر. الشمس كانت عالية في السماء، البحر كان هادئاً، الريح كانت ناعمة. صعد إلى السيارة، جلس في المقعد الخلفي، أغلق عينيه. كان يشعر بشيء غريب. ليس بالغضب، ليس بالخوف، بل بالفراغ. فراغ رجل عرف الحقيقة، واكتشف أن الحقيقة أعمق مما تصور. كان يعرف الآن أن البارون كان أباه. كان يعرف أن له إخوة في الشرق. كان يعرف أن الإرث لم ينتهِ. لكنه كان يعرف أيضاً أن كل هذا لا يغير شيئاً. هو ما يزال رايان الموراتي.

ما يزال زوج لين. ما يزال والد أمل. وما يزال الرجل الذي اختار الضوء.

في طريقه إلى المطار، نظر من نافذة السيارة إلى البحر، إلى الأمواج، إلى الأفق. تذكر كلمات جود الحمصي: لا تجعل ماضينا يصبح مستقبلها. تذكر القاعدة السابعة التي أكملها بخط يده: وإن كان حباً... فربما... يبقى. كان يعرف الآن، أكثر من أي وقت مضى، أن الإرث ليس ما يتركه الآباء، بل ما يختاره الأبناء. اختار أن يكون أباً، لا وحشاً. اختار أن يكون زوجاً، لا سجاناً. اختار أن يبقى في الضوء، رغم أن الظلال ما تزال تحيط به من كل جانب.

وعندما أقلعت الطائرة عائدة إلى مدينته، نظر رايان من النافذة إلى قصر البارون الذي يصغر تحته، إلى الجرف، إلى البحر، إلى الشرق كله. كان يعرف أنه سيعود يوماً ما. ليس كعدو، بل كابن. كأخ. كوريث. لكنه الآن، كان يريد فقط أن يعود إلى بيته. إلى أمل. إلى لين. إلى الحياة التي اختارها. الحياة التي تستحق أن تعاش.

يتبع...

الفصل التاسع

ما خفي كان أعظم

وصل رايان إلى القصر مع غروب الشمس، السماء كانت مشتعلة بالأحمر والبرتقالي، كأن الأفق يحترق. الطائرة هبطت في المدرج الخاص، وعزيز كان في انتظاره عند بوابة القصر. وجه عزيز كان متوتراً، لكنه لم يسأل شيئاً. كان يعرف أن رايان سيخبره عندما يكون مستعداً. مشى الرجلان معاً عبر الحديقة، الأوراق التي أخذها رايان من قصر البارون كانت ما تزال مطوية في معطفه، ثقيلة كالحجر، ساخنة كالجمر. دخل رايان القصر، لم يتوقف في الردهة، لم يذهب إلى المكتب، بل صعد مباشرة إلى غرفة أمل. فتح الباب بهدوء. كانت نائمة، شعرها الأسود منثور على الوسادة، وجهها هادئ كالماء الراكد. رايان وقف عند بابها طويلاً، ينظر إليها. كان يفكر في كل ما قاله كيريل، كل ما كشفه عن البارون، عن الدم الذي يجري في عروقه. كان هذا الدم يجري في أمل أيضاً. كانت تحمل إرث البارون دون أن تدري. لكنها كانت أيضاً تحمل إرثه هو، إرث لين، إرث كل من اختاروا الضوء على الظلام. أغلق الباب بهدوء، نزل إلى مكتبه، جلس على كرسيه، أخرج الأوراق من معطفه، وبدأ يقرأ.

كانت الأوراق التي سلمها كيريل له أكثر من مجرد رسائل ووثائق. كانت سجلاً كاملاً لحياة البارون السرية. حياة لم يعرفها أحد. حياة في الشرق، في مدن لم يزرها رايان قط، مع أشخاص لم يسمع بهم من قبل. كانت هناك أسماء، تواريخ، أماكن، كلها مكتوبة بخط يد البارون، كأنه كان يخشى أن ينسى. كأنه كان يريد أن يترك شيئاً خلفه. شيئاً حقيقياً. في أعلى الكومة، كان هناك دفتر صغير، بغلاف أسود، مشابه للدفتر الذي وجدته أمل في العلية. لكن هذا الدفتر لم يكن يحتوي على قواعد. كان يحتوي على قصص. قصص عن تلاميذه الآخرين. عن أبنائه الآخرين. عن كيريل فولكوف. عن أربعة آخرين لم يذكرهم كيريل في لقائهما. أسماء جديدة: ديمتري، أوليغ، ناديا، سيرغي. تلاميذ تدربوا في الشرق، بعيداً عن براغ، بعيداً عن الإمبراطورية. كانوا يعملون في الخفاء، يحمون مصالح البارون في مدن لم يزرها رايان قط. كانوا عائلته الأخرى. عائلة الظل.

رايان قرأ الصفحات ببطء، كان يحاول أن يفهم. البارون لم يكن مجرد رجل واحد، لم يكن مجرد زعيم إمبراطورية. كان يبني شيئاً أكبر، شيئاً يتجاوز الزمان والمكان. كان يبني سلالة. سلالة من التلاميذ، من الأبناء، من الورثة.

كل واحد منهم كان جزءاً من خطته. كل واحد منهم كان له دور. رايان كان التاج، الوريث الذي سيحكم الإمبراطورية. جود الحمصي كان الضحية، الكبش الذي ضحى به البارون ليحمي الإمبراطورية من الداخل. كيريل فولكوف كان الابن السري، التلميذ الذي بقي في الظل، ينتظر دوره. والآخرون، ديمتري وأوليغ وناديا وسيرغي، كانوا الحراس، الأيدي التي تنفذ، العيون التي تراقب، الألسنة التي تصمت.

لكن الدفتر كشف شيئاً آخر، شيئاً لم يتوقعه رايان. في الصفحات الأخيرة، كان البارون يكتب عن والد رايان الحقيقي. ليس عن نفسه، بل عن رجل آخر. رجل مات قبل أن يولد رايان. رجل لم يكن له علاقة بالإمبراطورية، لم يكن له علاقة بالدم والعنف، كان مجرد رجل بسيط، أحب أم رايان، ومات قبل أن يرى ابنه. البارون كتب: "لم أكن والده. كنت طيفاً. كنت بديلاً. كنت ما اختارته أمه ليكون أباً، لأن الأب الحقيقي رحل باكراً. أردت أن أكون له ما فقد. أردت أن أمنحه القوة، القوة التي لم يستطع والده أن يمنحه إياها. لكني أخطأت. حولت القوة إلى عنف. حولت الحب إلى سيطرة. حولت الابن إلى وحش. ثم حاولت إصلاحه، لكن الابن كان قد صار أقوى مني. الابن صار هو الوريث. وأنا... صرت الماضي الذي يريد نسيانه."

رايان توقف عن القراءة. الدفتر كان بين يديه، الكلمات كانت تتراقص أمام عينيه. البارون لم يكن والده الحقيقي. البارون كان طيفاً. كان بديلاً. كان رجلاً غريباً دخل حياة أمه بعد موت والده، وأراد أن يصنع منه شيئاً، لكنه أخطأ. كل ما قاله كيريل في القصر كان مبنياً على كذبة. كيريل كان يعتقد أن رايان هو ابن الدم، الابن الحقيقي للبارون. لكن الحقيقة كانت مختلفة. الحقيقة كانت أن رايان لم يكن ابناً للبارون. كان تلميذاً فقط. تلميذاً تحول إلى وريث. والبارون، في النهاية، اعترف بذلك. اعترف بأنه لم يكن أباه. اعترف بأنه كان مجرد طيف.

رايان وضع الدفتر على الطاولة، تنفس بعمق. كان يشعر بشيء غريب. ليس بالارتياح، ليس بالخيبة، بل بالتحرر. كان يعرف الآن، بشكل قاطع، أنه ليس ابناً للبارون. الدم الذي يجري في عروقه ليس دماً ملوثاً. الإرث الذي ورثه لم يكن إرث دم، بل إرث اختيار. اختار البارون أن يجعله وريثاً. واختار هو أن يكون مختلفاً. اختار أن يكسر القواعد. اختار أن يحب. اختار أن يبني بدلاً من أن يدمر.

لكن الدفتر لم ينتهِ بعد. في الصفحة الأخيرة، كان هناك شيء آخر. شيء كتبه البارون قبل موته بفترة قصيرة، بخط مرتجف، مختلف عن بقية الصفحات. كتب: " هناك شيء لم أخبره به. شيء عن أمه. عن موتها. لم تمت بالسرطان. لقد قُتلت. قُتلت لأنها كانت تعرف. تعرف من أنا. تعرف ماذا أفعل. تعرف أني لم أكن مجرد رجل أعمال. جاءوا إليها كي يصلوا إلي. وحين قاومتهم... قتلوها. لم أخبره أبداً. قلت له إن السرطان أخذها. كان ذلك أرحم من الحقيقة. أرحم من أن يعرف أن أمه ماتت بسببي."

رايان شعر بأن العالم توقف. الكلمات لم تعد مجرد حروف على ورق. كانت طعنات. كانت زلزالاً. أمه لم تمت بالسرطان. أمه قُتلت. قُتلت بسببه. بسبب البارون. بسبب الإمبراطورية. بسبب كل هذا العالم الذي جره إليه البارون. كان يعيش طوال حياته معتقداً أن أمه ماتت ميتة طبيعية، ماتت بسبب مرض لم يستطع أحد علاجه. والآن، ها هو يكتشف أنها ماتت بسببه. بسببه هو. لأن البارون اختاره. لأن البارون أراده أن يكون تلميذاً. لأن البارون جره إلى هذا العالم.

وقف رايان، مشى نحو النافذة، نظر إلى الحديقة المظلمة. كان يريد أن يصرخ. كان يريد أن يحطم شيئاً. كان يريد أن يعود بالزمن، أن يوقف أولئك الرجال، أن ينقذ أمه. لكنه كان يعرف أن هذا مستحيل. ما حدث قد حدث. الماضي لا يمكن تغييره. لكنه كان يعرف أيضاً أن ما فعله البارون لم يكن مجرد خطأ. كان جريمة. جريمة لم يعترف بها إلا في الصفحة الأخيرة من دفتر سري، لم يقرأه أحد حتى الآن.

عاد رايان إلى مكتبه، فتح درجاً، أخرج صورة أمه. الصورة الوحيدة التي كانت لديه. كانت فيها شابة، جميلة، تبتسم. كان ينظر إليها طويلاً. كان يتذكر صوتها، رائحتها، دفء يديها. كان يتذكر الليالي التي قضتها في المستشفى، السعال، الألم، الضعف. كان يتذكر كيف قال له الأطباء إن السرطان منتشر، إن لا أمل. والآن، ها هو يكتشف أن الأطباء كانوا مخطئين. لم يكن سرطاناً. كان رصاصاً. كان دماً. كان موتاً جاء إلى أمه لأنها كانت تعرف سر البارون.

أغلق رايان الدرج. كان يعرف أن هذه الحقيقة لن تغير شيئاً. أمه ما تزال ميتة. البارون ما يزال ميتاً. الإمبراطورية ما تزال منتهية. لكنه كان يعرف أيضاً أن هذه الحقيقة ستغير شيئاً واحداً على الأقل:

هي ستغير نظرته إلى البارون. لم يعد البارون مجرد معلم قاس، ولا أباً مزيفاً. كان قاتلاً. قاتل أمه. الرجل الذي طلب منه السماح، الرجل الذي بكى في قصر الشرق، الرجل الذي قال إنه يحبه... كان الشخص الذي تسبب في موت أمه.

دخلت لين المكتب، وجدته واقفاً، وجهه شاحب، عيناه تقدحان. سألته: ماذا هناك؟ رايان أشار إلى الأوراق على الطاولة. إرث البارون. ليس ما توقعته. ليس أموالاً ولا أملاكاً. بل أسرار. أسرار عن أمي. عن موتها. لم تمت بالسرطان. قُتلت. بسببه. لين اقتربت منه، أمسكت بيده. لم تقل شيئاً. كانت تعرف أن لا كلمات تكفي.

بعد صمت طويل، قال رايان بصوت خفيض: هذا هو الإرث الحقيقي. ليس القصر. ليس الشركة. ليس الدم. بل الأسرار. أسرار تخرج من القبر. أسرار تغير كل شيء. نظر إلى لين: لم يعد هناك شيء أخاف منه. لا البارون. لا أبناءه الآخرين. لا كيريل. لا أحد. لأني عرفت الأسوأ. عرفت الحقيقة.

يتبع...

الفصل العاشر

الشريك الصامت

مرت ثلاثة أيام على عودة رايان من قصر البارون. ثلاثة أيام وهو يجلس في مكتبه، والأوراق التي أحضرها من الشرق مبعثرة أمامه، يقرأها مرة بعد مرة، يحاول أن يفهم، يحاول أن يجد شيئاً فاته. كان قد عرف الحقيقة عن أمه، عرف أنها لم تمت بالسرطان بل قُتلت بسبب البارون. كان قد عرف أن البارون لم يكن والده الحقيقي، بل كان مجرد طيف دخل حياته بعد موت أبيه. لكن الأسئلة لم تنتهِ. كلما قرأ ورقة، انفتح باب إلى سؤال جديد. كلما أجاب سؤال، ظهر سؤال آخر. كأن البارون، حتى بعد موته، ما يزال يتحكم في الحقيقة، يخبئها في طبقات، لا يكشفها إلا لمن يصبر.

في صباح اليوم الرابع، وبينما كان رايان يقلب إحدى الرسائل القديمة، وجد شيئاً لم يلاحظه من قبل. في أسفل إحدى الصفحات، كان هناك اسم مكتوب بحبر باهت، كأن البارون كتبه على عجل ثم نسيانه. الاسم كان: سليم نعمان. لم يكن رايان يعرف هذا الاسم. لم يسمع به من قبل. لم يذكره البارون في أي من أحاديثه. لكن الاسم كان مكتوباً بجانب جملة واحدة: "هو من يعرف كل شيء. هو من كان معي منذ البداية. هو الشاهد الوحيد."

رايان رفع رأسه من الأوراق، نادى عزيز. خلال دقائق، كان عزيز واقفاً أمامه. قال رايان: سليم نعمان. من هو؟ عزيز فكر قليلاً، ثم هز رأسه: لا أعرف هذا الاسم. لم يظهر في أي من ملفات الإمبراطورية. لم يذكره أحد. رايان أعطاه الورقة: ابحث عنه. ابحث في كل شيء. في السجلات القديمة، في الحسابات البنكية، في أي شيء. لا بد أن له أثراً ما.

مرت ساعات. عزيز عاد ومعه ملف رفيع. قال: وجدته. سليم نعمان. محامي. كان محامي البارون الشخصي. ليس في الإمبراطورية، بل قبلها. قبل براغ. قبل كل شيء. كان يعمل معه في بداياته. ثم اختفى. اختفى؟ نعم. قبل عشرين سنة. ترك مكتبه، ترك بيته، ترك كل شيء. لا أحد يعرف أين ذهب. لكن هناك شيء آخر. ماذا؟ لم يكن مجرد محام. كان صديقه. صديق طفولته. نشأ معه في نفس الحي. ذهبا إلى نفس المدرسة. كانا لا ينفصلان. ثم، فجأة، اختفى.

رايان جلس صامتاً. كان هناك شخص آخر. شخص يعرف كل شيء. شخص كان مع البارون منذ البداية. منذ الطفولة. منذ قبل أن يصبح البارون بارونًا. هذا الشخص، سليم نعمان، ربما كان يحمل إجابات لأسئلة لم يسألها رايان بعد. أسئلة عن طفولة البارون، عن شبابه، عن الأسباب التي جعلته يصبح ما صار عليه. أسئلة عن والدة رايان. عن موتها. عن كل ما خفي.

قال رايان: أين هو الآن؟ عزيز فتح صفحة في الملف: تقاعد. يعيش في قرية صغيرة على الساحل. بعيداً عن كل شيء. لم يتزوج. ليس له أولاد. ليس له أحد. فقط منزل صغير على البحر. وحديقة. وصمت. رايان وقف: سنذهب إليه.

في صباح اليوم التالي، كان رايان في طريقه إلى قرية سليم نعمان. لم تكن بعيدة. بضع ساعات بالسيارة. الطريق كان يمتد على طول الساحل، البحر على اليمين، الجبال على اليسار، القرى الصغيرة تتلاشى في المرآة الخلفية. رايان كان يفكر. كان يعرف أن هذا الرجل، سليم نعمان، ربما كان الشخص الوحيد الذي يعرف حقيقة البارون. ليس البارون الذي عرفه رايان، ولا البارون الذي عرفه كيريل، ولا البارون الذي عرفه جود. بل البارون الحقيقي. الإنسان الذي كان موجوداً قبل كل شيء. قبل الدم. قبل العنف. قبل الإمبراطورية.

وصل رايان إلى القرية عند الظهر. كانت قرية صغيرة، بيوت بيضاء، شوارع ضيقة، قوارب صيد على الشاطئ. منزل سليم نعمان كان في نهاية القرية، منزلاً صغيراً بجدران زرقاء، وحديقة مليئة بالأزهار البرية. كان رجل عجوز يجلس على كرسي خشبي أمام المنزل، ينظر إلى البحر. شعره كان أبيض كاملاً، وجهه متجعد، لكن عينيه كانتا حادتين، تلمعان بذكاء قديم. عندما رأى رايان، لم يتفاجأ. كأنه كان يتوقع هذه الزيارة. كأنه كان ينتظرها.

قال بصوت هادئ: أنت رايان المواراتي. رايان وقف أمامه: وأنت سليم نعمان. أنا من أخبرك؟ لا أحد. أنا أعرف. منذ زمن طويل، كنت أعرف أن هذا اليوم سيأتي. كنت أعرف أن أحداً ما سيأتي ليسأل عن البارون. لم أكن أعرف أنه سيكون أنت. لكنك هنا. اجلس.

جلس رايان على كرسي خشبي مقابل الرجل العجوز. البحر كان يلمع تحت الشمس. الريح كانت تحمل رائحة الملح والياسمين. قال سليم: أنت تشبه أمك. رايان تجمد. لم يتوقع أن يسمع هذا. كم مرة سمعتها من قبل؟ كثيراً. لكنها المرة الأولى التي يسمعها من رجل يعرف البارون. قال رايان: عرفت أمي؟ عرفتها. كنت هناك عندما تزوجت. كنت هناك عندما ولدت أنت. كنت هناك... عندما ماتت.

صمت الرجل العجوز. كان ينظر إلى البحر، كأنه يرى شيئاً في الأمواج لا يراه غيره. ثم قال: أنا الشخص الوحيد الذي يعرف القصة كلها. ليس القصة التي كتبها البارون في دفاتره. ليس القصة التي سمعتها من كيريل. القصة الحقيقية. من البداية. من قبل أن يصبح البارون بارونًا. من قبل أن يبني الإمبراطورية. من قبل كل شيء. هل تريد أن تسمعها؟

رايان أومأ برأسه. كان يعرف أن هذه اللحظة هي ما كان يبحث عنه طوال الوقت. ليس الانتقام. ليس العدالة. بل الفهم. فهم كيف بدأ كل شيء. كيف تحول رجل عادي إلى وحش. كيف تحولت حياة عادية إلى سلسلة من الدم والموت والأسرار.

سليم تنفس بعمق، ثم بدأ: البارون لم يكن اسمه الحقيقي. اسمه كان عادل. عادل سلمان. ولد في حي فقير. والده كان صياداً. والدته كانت خياطة. لم يكن لديه شيء. كنا نلعب معاً في الشوارع. كنا نحلم بأن نكبر ونصبح شيئاً. كنا نسرق الخبز معاً. كنا نتضور جوعاً معاً. ثم، في يوم من الأيام، حدث شيء. شيء غيره إلى الأبد.

ماذا حدث؟ البارون كان في السادسة عشرة. كان يمشي في الشارع. رأى رجلاً ثرياً يضرب ابنه. الابن كان في مثل عمره. كان يبكي. كان يتوسل. الأب لم يتوقف.

والبارون... عادل... وقف. نظر إلى المشهد. ثم مشى. لم يفعل شيئاً. لم يتدخل. مشى. وفي تلك الليلة، قال لي: "الضعفاء يُضربون. الأقوياء يضربون. أنا لن أكون ضعيفاً أبداً." منذ تلك الليلة، تغير. بدأ يبحث عن القوة. ليس قوة المال، ولا قوة السلاح. بل قوة السيطرة. قوة أن تكون أنت من يقرر. أن تكون أنت من يضرب. لا أن تُضرب.

رايان كان يستمع بصمت. كان يرى البارون في صورة جديدة. ليس وحشاً. ليس شيطاناً. بل طفلاً خائفاً. طفلاً رأى العنف، وقرر أن يصبح هو العنف. حتى لا يكون ضحية. سليم تابع: ثم جاءت الحرب. ثم الهجرة. ثم أوروبا. ثم براغ. تعرف البقية. أنت عشت بعضها.

سكت الرجل العجوز. ثم نظر إلى رايان: لكن ما لا تعرفه هو الجزء الذي لم يكتبه في دفاتره. الجزء الخاص بأمك.

رايان انحنى إلى الأمام. سليم قال: أمك لم تكن مجرد امرأة تزوجها. كانت الشيء الوحيد الذي أحبه. حقاً أحبه.

ليس كتملك. ليس كسيطرة. بل كحب. حب حقيقي. لكنه كان يعرف أنه لا يستحقها. كان يعرف أن العالم الذي بناه سيدمرها. وحين جاءوا ليقتلوها... جاءوا بسببه. بسبب أعدائه. بسبب أخطائه. حاول حمايتها. لكنه فشل. ماتت بين ذراعيه. وهو الذي قتلها. ليس بيده. بل بحياته. بالعالم الذي اختاره.

رايان قال بصوت خفيض: لماذا لم يخبرني أبداً؟ لأنه كان يخجل. كان يخجل من حقيقة أنه أحب. أن الحب كان موجوداً في حياته. أن هناك شيئاً نقياً في عالمه القذر. كان يخجل من أنه فشل في حمايتها. كان يخجل من أنه، في النهاية، كان ضعيفاً أمام الحب. لهذا، دفن الحقيقة. دفن اسم أمك. دفن كل شيء. حتى جاء أنت، وذكّرته بها. كنت تشبهها. في عينيك. في صوتك. في كل شيء. لهذا أحبك. ولهذا دمرك. لأنه كان يرى فيها فيك. وكان هذا يعذبه.

جلس رايان صامتاً. البحر كان يهمس. الريح كانت تحرك الأزهار في الحديقة. كان يشعر بشيء جديد. ليس بالغضب. ليس بالحزن. بل بالاكتمال. كأن قطعة مفقودة من روحه عادت إلى مكانها. كان يعرف الآن القصة كلها. من البداية. من قبل البداية. من طفل جائع في حي فقير. إلى رجل أحب امرأة. إلى وحش دمر كل شيء. إلى أب مزيف حاول أن يصلح ما كسره. إلى النهاية.

وقف رايان. شكر سليم نعمان. سأله: لماذا أخبرتني كل هذا؟ سليم نظر إليه، ابتسم ابتسامة خفيفة: لأني تعبت من الصمت. لأني عشت طوال عمري وأنا أعرف الحقيقة، ولم أقلها لأحد. لأني أردت، قبل أن أموت، أن يعرف أحد ما الحقيقة. الحقيقة الكاملة. ليس عن البارون فقط. بل عنك أنت. أنت لست وحشاً. لم تكن وحشاً أبداً. أنت ابن أمك. ابن الحب الوحيد الذي عرفه البارون. وهذا... هو إرثك الحقيقي.

رايان مشى عائداً إلى سيارته، كلمات سليم نعمان ترن في أذنيه. "أنت ابن الحب الوحيد الذي عرفه البارون." كان يعرف الآن أن إرثه لم يكن دماً. لم يكن عنفاً. لم يكن كراهية. كان حباً. حب أمه. الحب الذي حاول البارون أن يخفيه، لكنه بقي. بقي في عيني رايان. بقي في صوته. بقي في كل ذرة من كيانه.

في طريق عودته إلى القصر، نظر رايان إلى البحر. كان يعرف أنه سيعود إلى سليم نعمان يوماً ما. ليس ليسمع المزيد من الأسرار. بل ليشكره. لأن الرجل العجوز، بصمته الطويل، حفظ الحقيقة. وحين جاء الوقت، قالها. وهذه كانت أعظم هدية يمكن أن يمنحها أحد.

يتبع...

الفصل الحادي عشر

وجه من الماضي

لم يكد رايان يصل إلى بوابات قصره حتى رن هاتفه. كان رقمًا غير معروف. تردد للحظة، ثم أجاب. كان الصوت على الطرف الآخر ضعيفًا، متعبًا، لكنه مألوف: سليم نعمان. قال الرجل العجوز بصوت مرتجف: هناك شيء آخر، شيء لم أخبرك به. ليس عن البارون. بل عن أمك. لقد احتفظت به طوال هذه السنين. لم أجرؤ على إظهاره لأحد. لكن بعد أن رأيتك اليوم، عرفت أن الوقت قد حان. تعال غدًا. سأعطيك إياه.

أغلق رايان الهاتف ببطء، قلبه يدق بقوة. كان قد ظن أنه عرف كل شيء. ظن أن قصة أمه قد انتهت. لكن ها هو سليم نعمان يخبره أن هناك شيئًا آخر. شيئًا كان محفوظًا طوال هذه السنين. شيئًا يخص أمه. لم ينم تلك الليلة. جلس في مكتبه حتى الفجر، يتساءل: ماذا يمكن أن يكون؟ صندوق ذكريات؟ رسائل؟ صور؟ شيء لم يره أحد من قبل؟ شيء من والدته التي لم يعرفها إلا طيفًا في ذاكرته، صوتًا ناعمًا، يدًا دافئة، وجهًا بدأ يبهت مع مرور الزمن.

في صباح اليوم التالي، عاد رايان إلى قرية سليم نعمان. السماء كانت ملبدة بالغيوم، البحر كان هادئًا كمرآة رمادية. وجد الرجل العجوز جالسًا في نفس المكان، أمام منزله الأزرق، لكن هذه المرة كان يحمل على ركبتيه صندوقًا خشبيًا صغيرًا. كان الصندوق قديمًا، مطليًا باللون الأبيض الذي تقشر مع الزمن، عليه نقوش ذهبية باهتة. كان صندوقًا نسائيًا، صندوق مجوهرات أو ذكريات، صندوقًا يخص امرأة.

سليم رفع عينيه إلى رايان، قال بصوت خفيض: هذا كان لها. احتفظت به بعد موتها. لم أخبر البارون. لم أخبر أحدًا. كان لي وحدي. كنت أنظف منزلها بعد الجنازة، ووجدته تحت سريرها. كان مخبأ. كانت تخفيه. لم أفتحه قط. لم أجرؤ. لكني عرفت أنه سيأتي يوم ويأتي من يستحقه. أنت.

مدّ الصندوق إلى رايان بيدين مرتجفتين. رايان أخذه. كان خفيفًا. كان خشبه ناعمًا، رغم قدمه. جلس على الكرسي المقابل لسليم، وضع الصندوق على ركبتيه، وفتحه ببطء. الغطاء ارتفع بصوت خفيف، كأنه يتنفس لأول مرة منذ عشرات السنين. في الداخل، كان هناك أشياء قليلة. لكنها كانت كافية لتغير كل شيء.

أول ما رآه رايان كان صورة. صورة قديمة، بالأبيض والأسود، لامرأة شابة تحمل طفلًا صغيرًا بين ذراعيها. المرأة كانت تضحك. كان وجهها مضيئًا، عيناها تلمعان، شعرها الأسود ينسدل على كتفيها. والطفل كان هو. رايان. كان عمره بضعة أشهر. كان ينظر إلى الكاميرا بعينين واسعتين، لا يعرف شيئًا عن العالم الذي ينتظره. رايان حدق في الصورة. لم يرَ هذه الصورة من قبل. لم يعرف أنها موجودة. كانت أمه تحمله. كانت تضحك. كانت سعيدة.

تحت الصورة، كان هناك ظرف. ظرف أصفر، قديم، مختوم بشمع أحمر. كتب عليه بخط أنثوي جميل: "إلى ابني رايان، عندما يكبر." رايان شعر بأن أنفاسه تتقطع. رسالة من أمه. رسالة كتبتها له قبل أن تموت. رسالة لم تصله أبدًا. فتح الظرف بيدين ترتجفان، أخرج الورقة، وقرأ.

كانت الرسالة مكتوبة بحبر أزرق، بخط جميل، لكن بعض الكلمات كانت ملطخة، كأن الماء وقع عليها، أو كأن كاتبتها بكت وهي تكتب. قرأ رايان:

"ابني الحبيب رايان. إن كنت تقرأ هذا، فهذا يعني أني رحلت. لا أعرف متى، ولا أعرف كيف، لكني أعرف أن الحياة هشة، وأن الموت يأتي بلا إنذار. أريدك أن تعرف أني أحببتك. أحببتك منذ اللحظة الأولى التي رأيتك فيها. كنت صغيراً جدًا، ضعيفًا جدًا، لكن عينيك كانتا قويتين. عيناك كانتا تشبهان عيني أبيك. لا، ليس البارون. بل أبوك الحقيقي. الرجل الذي مات قبل أن تولد. الرجل الذي كان طيبًا، وشجاعًا، ومختلفًا عن كل ما ستعرفه لاحقًا. أريدك أن تعرف أن البارون ليس أباك. لا تصدقهم إن قالوا لك ذلك. البارون دخل حياتي بعد موت أبيك. كان وحيدًا، وكان طموحًا، وكان يحبني بطريقته. لكنه لم يكن أباك. أنت ابن رجل آخر. رجل مات وهو يحلم بأن يراك تكبر. لا تنسَ ذلك."

رايان توقف عن القراءة. الدموع كانت تسيل على خديه دون أن يشعر. أمه كتبت له هذه الرسالة. أمه أرادت أن يعرف الحقيقة. أرادت أن يعرف أن البارون لم يكن والده. أرادت أن يعرف أنه ابن رجل طيب، رجل مات قبل أن يراه. ثم تابع القراءة:

"لا تكره البارون. أعرف أنه سيؤذيك. أعرف أنه سيجرك إلى عالمه. لكني أعرف أيضًا أنه يحبك. بطريقته المشوهة. بطريقته المكسورة. لا تصبح مثله. كن أفضل. كن مثل أبيك. كن مثلي. أحب. حتى حين يكون الحب صعبًا. حتى حين يكون الحب مستحيلًا. الحب هو الشيء الوحيد الذي يبقى. صدقني. أنا أمك. وأنا أعرف."

ثم انتهت الرسالة. في الأسفل، كان هناك توقيع: "أمك، إلى الأبد."

رايان طوى الورقة ببطء، ووضعها في معطفه. كان قلبه ممتلئًا بشيء لم يشعره من قبل. ليس بالحزن. ليس بالغضب. بل بالامتنان. أمه تركته رسالة. أمه أرادته أن يعرف. أمه أحبته حتى النهاية.

لكن الصندوق لم يكن فارغًا بعد. في قاع الصندوق، كان هناك شيء آخر. خاتم. خاتم ذهبي بسيط، عليه حجر أزرق صغير. كان خاتم أمه. تذكره. كانت ترتديه دائمًا. كان في إصبعها وهي تحتضر. سليم أخذه وحفظه. رايان وضع الخاتم في إصبعه الصغير. كان مناسبًا. كأنه كان ينتظره.

ثم رأى شيئًا آخر. في زاوية الصندوق، كانت هناك قصاصة ورق صغيرة. ليست رسالة، بل جملة واحدة مكتوبة على عجل. بخط مختلف. خط رجل. خط البارون. قرأ رايان: "إن عاد ابني يومًا ليسأل عن أمه، فأخبره أني أحببتها. وأني مت أسفًا." رايان نظر إلى سليم. الرجل العجوز قال: كتبها قبل أن يموت. أرسلها إلي. كنت أنتظر اللحظة المناسبة لأعطيك إياها. اليوم هو تلك اللحظة.

جلس رايان صامتًا، الصندوق في يده، الرسالة في معطفه، الخاتم في إصبعه، كلمات أمه في قلبه، وكلمات البارون في ذهنه. كان يشعر بأن شيئًا ما قد اكتمل. ليس لأن الأسئلة انتهت. بل لأنه، للمرة الأولى، عرف من هو. ليس الوريث. ليس ابن البارون. ليس الوحش. بل ابن أمه. ابن الحب. ابن الرجل الطيب الذي مات قبل أن يراه. هذا هو إرثه. هذا هو وجهه الحقيقي.

شكر رايان سليم نعمان، وعاد إلى سيارته. في طريق العودة، كان البحر يلمع تحت الشمس التي بدأت تظهر من خلف الغيوم. كان يعرف أن هذه الرحلة كانت الأخيرة. لن يعود إلى سليم. لن يحتاج. لأن سليم أعطاه كل شيء. أعطاه أمه. وقبل أن يغادر القرية، توقف رايان عند شاطئ البحر. نزل من السيارة، مشى إلى حافة الماء، نظر إلى الأفق. كانت الريح ناعمة، والأمواج هادئة. فتح الرسالة مرة أخرى، قرأها للمرة الأخيرة، ثم طواها، ووضعها في معطفه، قريبًا من قلبه. لم يعد بحاجة لقراءتها. صارت محفورة في ذاكرته. صارت جزءًا منه.

عاد رايان إلى القصر عند الغروب. وجد أمل في الحديقة، تقرأ كتابًا تحت شجرة الستارية. نظرت إليه، ابتسمت: أبي، أين كنت؟ جلس بجانبها على العشب. قال: ذهبت لأتعرف على جدتك. أمل نظرت إليه باستغراب: جدتي؟ لكنها ماتت. قال رايان: نعم. لكنها تركت لي شيئًا. تركت لي كلمات. والكلمات لا تموت. أخرج الرسالة من معطفه، وأعطاها لأمل: اقرئي. هذه جدتك. هذا إرثك.

قرأت أمل الرسالة ببطء. عيناها كانتا تلمعان. عندما انتهت، نظرت إلى أبيها: كانت تحبك. كثيراً. قال رايان: نعم. وكانت ستحبك أنت أيضًا. أمل أعادت الرسالة إليه: سأحتفظ بها في قلبي. كما احتفظت بها أنت. ابتسم رايان. كان يعرف أن الدائرة قد اكتملت. أمه كتبت له. وهو أعطى الرسالة لابنته. والإرث الحقيقي، إرث الحب، استمر.

في تلك الليلة، جلس رايان في مكتبه، الصندوق الخشبي مفتوح أمامه. أخرج كل ما فيه: الصورة، الرسالة، قصاصة البارون. نظر إليها طويلاً. ثم فتح درج مكتبه، أخرج دفتر قواعد البارون،

وفتحه على الصفحة الأخيرة. على القاعدة السابعة. على الكلمات التي كتبها بخط يده: "وإن كان حبًا... فربما... يبقى." الآن، فهم معناها. ليس فقط لأن الحب يبقى. بل لأن الحب هو الشيء الوحيد الذي يستحق أن يبقى. أخذ قلمه، وكتب تحت القاعدة السابعة، بحبر أزرق: "أمي كانت على حق."

أغلق الدفتر. أغلق الصندوق. نظر من النافذة إلى السماء المرصعة بالنجوم. كان يعرف أن الغد سيحمل أسئلة جديدة. سيحمل خطرًا جديدًا. سيحمل كيريل وحراس الإرث. سيحمل كل ما لم ينتهِ بعد. لكنه كان مستعدًا. لأنه، للمرة الأولى، لم يكن يقاتل من أجل الانتقام. لم يكن يقاتل من أجل الإمبراطورية. كان يقاتل من أجل الحب. من أجل أمه التي كتبت له رسالة. من أجل ابنته التي قرأتها. من أجل الحياة التي اختارها.

يتبع...

الفصل الثاني عشر

الخيانة الثانية

عاد رايان من قرية سليم نعمان وهو يحمل صندوق أمه، رسالتها، خاتمها، صورتها، وكلمات البارون الأخيرة. كان يشعر لاكتمال لم يعرفه من قبل. لكنه كان يعرف أيضًا أن السلام ليس دائمًا. أن الهدوء الذي أعقب عودته ما هو إلا فترة سماح. فترة كان العالم يمنحه إياها قبل أن يضرب من جديد.

في تلك الليلة، وبينما كان القصر نائمًا، اخترق صوت إنذار خافت جدران غرفة المراقبة. لم يكن إنذار البوابات، ولا إنذار النوافذ، بل كان إنذارًا من غرفة الأرشيف. عزيز كان أول من رآه على الشاشة. شخص يتحرك في الظلام، بين رفوف الملفات القديمة، بين أوراق الإمبراطورية التي لم يلمسها أحد منذ سنوات. كان يعرف طريقه، كأنه يعرف المكان مسبقًا. كأنه كان هنا من قبل. أرسل عزيز الحراس، أغلقت الأبواب، أضيئت الأنوار، أحيط المكان. لكن الدخيل كان قد اختفى. لم يجدوا أحدًا. فقط نافذة مفتوحة، ورفًا قد تم العبث بمحتوياته، وملفًا واحدًا قد اختفى. ملفًا كان يحمل اسمًا واحدًا على غلافه. اسم سليم نعمان.

رايان جلس في مكتبه بعد منتصف الليل، عزيز واقف أمامه، والحراس يفتشون كل زاوية في القصر. قال عزيز: كان يعرف بالضبط أين يبحث. لم يلمس أي شيء آخر. فقط ملف سليم نعمان. رايان سأل: من كان يعرف أني ذهبت إليه؟ عزيز فكر: لم نخبر أحدًا. لا أحد خارج القصر يعرف. إلا إذا كان أحد ما يراقبنا. أو أحد ما في الداخل. كان يتجسس علينا. رايان صمت. فكرة أن يكون هناك خائن داخل القصر كانت مؤلمة. لكنها لم تكن مفاجئة. الإمبراطورية القديمة لم تمت تمامًا. أشباحها ما تزال هنا. تتخفى في زوايا الثقة. تنتظر اللحظة المناسبة للانقضاض.

في صباح اليوم التالي، وصلت رسالة جديدة. في مظروف أسود. مختوم بشمع أحمر. وجدها عزيز على مكتب رايان، رغم أن أحدًا لم يدخل المكتب. أحدهم وضعها هناك في الليل. أثناء الفوضى. أثناء البحث عن الدخيل. كان الدخيل قد دخل القصر مرتين في ليلة واحدة. مرة إلى الأرشيف، ومرة إلى مكتب رايان. لم يسرق شيئًا من المكتب. فقط ترك الرسالة. رايان فتحها. كانت بخط كيريل فولكوف.

"شكرًا على الملف. وجدنا ما كنا نبحث عنه. سليم نعمان كان مخبأ أسرار البارون. والآن، صارت أسراره لنا. لم نكن نعرف عن الرسالة. لم نكن نعرف عن الصورة. لم نكن نعرف أن أمك تركت لك شيئًا. الآن نعرف. وهذا يغير كل شيء. ليس الدم ما يربطك بالبارون. ليس الإرث. أنت لست ابنه. أنت لست أخانا. أنت مجرد تلميذ. مجرد وريث. مجرد رجل أخذ ما ليس له. كنا نبحث عن اعترافك. الآن، لم نعد بحاجة إليه. لأنك لست واحدًا منا. لن نأتي إليك كإخوة. سنأتي إليك كدائنين. كمن يريدون استعادة ما سُرق. الإمبراطورية لم تكن لك أبدًا. حان الوقت لإعادتها إلى أصحابها الحقيقيين."

رايان طوى الرسالة ببطء. كيريل وحرس الإرث كانوا يبحثون عن دليل على أن رايان ليس ابن البارون. وها هم وجدوه. الملف المسروق من الأرشيف كان يحتوي على تفاصيل عن سليم نعمان، وعن علاقته بالبارون. لكن الملف لم يكن كافيًا. ما جعلهم متأكدين هو الرسالة التي كانت على مكتبه. رسالة أمه. لا بد أن الجاسوس الذي دخل مكتبه قرأها. قرأ كلمات أمه: "البارون ليس أباك." والآن، ها هو كيريل يستخدم هذه الحقيقة ضده. ليس للاعتراف. بل للهجوم. لإلغاء شرعيته. لاستعادة الإمبراطورية.

لكن رايان لم يغضب. كان قد عرف هذه الحقيقة منذ أيام. كان قد تصالح معها. لم يكن ابن البارون. كان ابن أمه. ابن رجل طيب مات قبل أن يراه. وهذه الحقيقة، التي كان يخشاها يومًا، صارت الآن درعه. لأنها حررته. لم يعد مدينًا للبارون بشيء. لم يعد وريثًا لدمه. كان وريثًا لاختياره. اختيار البارون له. واختياره هو لنفسه.

نظر رايان إلى عزيز: نعرف الآن أن هناك جاسوسًا في القصر. شخص يعمل لصالح كيريل. شخص يثق به الجميع. عزيز سأل: من تشك فيه؟ رايان نظر إلى قائمة الموظفين. إلى الحراس. إلى الخدم. إلى السائقين. إلى كل من يعمل داخل هذه الجدران. قال: لا أحد. سأثق بالجميع، حتى أعرف من هو الخائن. الشك سيسممنا. لكن الحقيقة ستكشفه.

في الأيام التي تلت، بدأ كيريل وحرس الإرث يتحركون. لم يكونوا يهاجمون القصر. لم يكونوا يهددون أمل. بدلًا من ذلك، كانوا يهاجمون الشركة. شركة المواراتي القابضة. من الداخل. عقود ألغيت. صفقات انهارت. شركاء انسحبوا فجأة. موظفون رئيسيون استقالوا دون سابق إنذار. حرب اقتصادية صامتة. حرب تهدف إلى إضعاف رايان، وإفراغ الإمبراطورية من محتواها، قبل أن يأتوا لاستعادة الهيكل الفارغ. رايان كان يعرف أن هذه هي الطريقة. ليس بالعنف. ليس بالدم. بل بالمال. بالصفقات. بالخيانة الهادئة. تمامًا كما علمهم البارون. العنف يترك أثرًا. المال لا يترك شيئًا.

استدعى رايان مجلس إدارة الشركة. وضع خطة لمواجهة الهجوم المالي، لتعزيز العقود، لاستعادة الشركاء، لإيقاف النزيف. كان يعمل من الفجر حتى منتصف الليل، يوقع أوراقًا، يجري مكالمات، يعقد اجتماعات. كان يقاتل في حرب جديدة. حرب لم يتدرب عليها. لكنه تعلمها بسرعة. كان يعرف أن الشركة ليست مجرد مال. كانت إرثًا حوله هو إلى شيء نظيف. شيء قانوني. شيء يمكن أن تفخر به أمل يومًا ما. لن يترك كيريل يدمر ذلك.

وفي ذروة هذه الحرب الصامتة، عاد رايان إلى القصر في إحدى الليالي ليجد أمل تنتظره في المكتب. كانت تحمل دفترًا في يدها. دفترًا أسود. دفتر قواعد البارون. قالت: قرأته. كله. رايان نظر إليها، لم يغضب. كان يعرف أن هذا اليوم سيأتي. سألها: وماذا فهمت؟ قالت: فهمت أنه كان خائفًا. القواعد التي كتبها لم تكن للأقوياء. كانت للخائفين. لمن يخافون أن يثقوا. أن يحبوا. أن يخسروا. قال رايان: وأنت، هل أنت خائفة؟ نظرت إليه أمل بعينيها الرماديتين: لا. لأني أعرف أن القواعد ليست صحيحة. أنت كسرتها كلها. وها أنت هنا. قوي. لست وحشًا. إذن القواعد خاطئة.

رايان شعر بشيء يفيض في قلبه. فخر. حب. اكتمال.

قال: القواعد ليست خاطئة فقط. بل ناقصة. هناك قاعدة سابعة. كتبتها أنا. فتحت أمل الدفتر على الصفحة الأخيرة. قرأت: "وإن كان حبًا... فربما... يبقى."

ثم قرأت السطر الذي أضافه رايان لاحقًا: "أمي كانت على حق." ابتسمت أمل: هذا هو الفرق بينك وبينه. هو كتب القواعد لأنه كان خائفًا. أنت أكملتها لأنك لم تعد خائفًا.

في تلك الليلة، وبينما كانت أمل تعود إلى غرفتها، ورايان يجلس في مكتبه، دخل عزيز مسرعًا. كان يحمل ملفًا جديدًا. قال: وجدته. وجدت الخائن. رايان فتح الملف. كانت صورة. واسم. رجل يعمل في القصر منذ سنوات. منذ أيام البارون. كان أمين الأرشيف القديم. كان يعرف كل شيء. كل ملف. كل سر. كل ممر سري. كان هادئًا، غير مرئي، موثوقًا. والآن، ها هو يظهر. كان يعمل لصالح كيريل. منذ البداية.

قال رايان: لا تعتقله. لا تلمسه. دعه. دعه يعتقد أننا لا نعرف. سنستخدمه. سنعطيه معلومات مزيفة. سنضلل كيريل. سنجعل الخائن سلاحنا. عزيز أومأ برأسه. كان يعرف أن رايان تغير. لم يعد ذلك الرجل الذي يواجه أعداءه بالعنف. صار أكثر دهاءً. أكثر صبراً. أكثر حكمة. الحرب لم تعد بالرصاص. الحرب صارت بالصمت. بالانتظار. باللعبة الطويلة. لعبة البارون. التي علمه إياها دون أن يدري.

بعد أن خرج عزيز، جلس رايان وحده. أخرج صورة أمه من درجه. نظر إليها طويلاً. كان يسمع صوتها في ذهنه. كان يقرأ كلماتها. "الحب هو الشيء الوحيد الذي يبقى." ابتسم. كان يعرف الآن. الحب هو ما جعله مختلفًا. الحب هو ما جعله أقوى. الحب هو ما سينقذه. ليس فقط من كيريل. بل من نفسه. من ماضيه. من الوحش الذي كان يمكن أن يصبحه. وضع الصورة على المكتب أمامه. تركها هناك، تحت ضوء المصباح، كتعويذة. كذكرى. كوعد. بأن الحب سيبقى. مهما حدث.

يتبع...

الفصل الثالث عشر

أمل

في صباح اليوم التالي، دخلت أمل إلى مكتب والدها دون أن تطرق الباب. لم تكن هذه عادتها، لكنها اليوم كانت تحمل شيئاً في يديها، شيئاً جعل رايان يرفع رأسه من أوراقه وينظر إليها باهتمام. كانت تحمل دفتراً. ليس دفتر قواعد البارون الذي قرأته من قبل. كان دفتراً آخر. دفتراً بغلاف أزرق باهت، عليه اسم مكتوب بخط يدها: أمل المواراتي. قال رايان: ما هذا؟ قالت أمل: هذا دفتر قواعدي. قواعدي أنا. ليس قواعد البارون. ليس قواعدك. بل قواعد سأكتبها بنفسي. رايان وضع قلمه جانباً، أشار إليها بالجلوس. قال: اقرأي لي ما كتبتِ.

فتحت أمل الدفتر، قرأت بصوت هادئ: القاعدة الأولى: لا ترث الصمت. من يرث الصمت يرث الخوف. اسأل حتى حين تكون الإجابة مؤلمة. واجه حتى حين تكون المواجهة مخيفة. الصمت ليس سلاماً. الصمت هو تأجيل للألم. رايان كان يستمع. كان يرى فيها شيئاً من نفسه، وشيئاً من لين، وشيئاً لا يشبه أحداً. شيئاً فريداً. شيئاً اسمه أمل. تابعت:

القاعدة الثانية: لا تظن أنك تعرف القصة كاملة. القصة التي تسمعها من طرف واحد هي نصف الحقيقة. دائماً هناك طرف آخر. دائماً هناك صوت لم يُسمع. دائماً هناك فصل لم يُكتب. ابحث عن الأصوات الصامتة. اقرأ الفصول المخبأة. لا تحكم حتى تعرف. كل شيء.

رايان قال: وماذا أيضاً؟ قلبت أمل الصفحة: القاعدة الثالثة: لا تخف من الظلام. الظلام ليس عدواً. الظلام هو المكان الذي تختبر فيه نفسك. في الضوء، الكل يبدو قوياً. في الظلام، تعرف من أنت حقاً. تعرف ماذا تستطيع. تعرف حدودك. ثم تتجاوزها. رايان شعر بشيء يتحرك في قلبه. فخر. دهشة. قلق أيضاً. ابنته كانت تكبر. كانت تفكر. كانت تبني عالمها الخاص. لم تكن مجرد وريثة. كانت شيئاً أكثر.

أمل قلبت صفحة أخرى: القاعدة الرابعة: الحب ليس ضعفاً. هذه هي القاعدة التي خالف بها البارون كل شيء. ظن أن الحب يجعله ضعيفاً. ظن أن الحب جرح. ظن أن من يحب يخسر. لكنه كان مخطئاً. الحب هو القوة الوحيدة التي لا تنكسر. الحب هو ما جعل أبي يختار الضوء. الحب هو ما جعل أمي تبقى رغم كل شيء. الحب هو ما يجعلني أكتب هذه القواعد الآن. ليس لأني خائفة. بل لأني أعرف.

رايان نظر إلى أمل. كانت عيناها تلمعان. كانت تشبهه. كانت تشبه لين. كانت تشبه كل النساء القويات في عائلتها. قال بصوت خفيض: وماذا عن القاعدة الخامسة؟

ابتسمت أمل: لم أكتبها بعد. ما تزال فارغة. أتركها للمستقبل. لشيء لم أعرفه بعد. لشيء سأتعلمه. القواعد لا تكتمل أبداً. هذا ما تعلمته منك. من قواعد البارون التي تركتها ناقصة. من القاعدة السابعة التي أكملتها أنت. القواعد تنمو. تتغير. كما ننمو نحن. كما نتغير نحن.

جلس رايان صامتاً. كان يفكر. كان يرى أن ابنته لم تعد طفلة. كانت شابة. شابة تفهم أكثر مما كان يفهم هو في مثل عمرها. شابة كتبت قواعدها الخاصة. قواعد أفضل من قواعده. أفضل من قواعد البارون. لأنها لم تولد من الخوف. ولدت من الفهم. من الحب. من الأمل.

قال: أمل. نعم؟ أنت لم تكوني مجرد وريثة. أنتِ كنتِ دائماً أكثر. أنتِ كنتِ الأمل. ليس فقط اسمك. بل ما تمثلينه. مستقبل هذه العائلة. ليس مستقبل الإمبراطورية. ليس مستقبل الشركة. بل مستقبل القيم. مستقبل الحب. مستقبل كل ما حاولنا بنائه.

نهضت أمل من كرسيها، مشت نحو والدها. لم تربت على كتفه. لم تعانقه. لم تفعل شيئاً سوى أن نظرت إليه بعينيها الرماديتين. قالت: لا تخف عليّ. لن أكرر أخطاء الماضي. لن أصبح مثل البارون. لن أصبح مثل أي أحد. سأكون أنا. فقط أنا. أمل.

رايان أومأ برأسه. قال: أعرف. لكني سأبقى هنا. ليس لأحميك. بل لأشاهدك. لأراك تكبرين. لأراك تكتبين قواعدك. لأراك تصبحين ما لم يستطع أحد منا أن يصبحه.

في تلك الليلة، جلست أمل في غرفتها، دفترها الأزرق مفتوح أمامها، وقلمها في يدها. كانت تفكر في القاعدة الخامسة. ماذا ستكتب؟ ما الذي لم تعرفه بعد؟ ما الذي ستتعلمه في المستقبل؟ نظرت من نافذتها إلى القمر. كان بدراً. كان جميلاً. كان يذكرها بشيء قالته أمها مرة: "القمر لا يصنع ضوءه. يعكسه. نحن أيضاً. نعكس الضوء الذي نتلقاه. من آبائنا. من أمهاتنا. من أحبائنا. ثم نمرره. إلى من بعدنا."

فجأة، عرفت ماذا ستكتب. أمسكت بقلمها، وكتبت تحت القاعدة الخامسة: القاعدة الخامسة: لا تنسَ أن تعكس الضوء. النور الذي تلقيته من غيرك ليس ملكك وحدك. مرره. علمه. اكتبه. احكِه. الضوء الذي يبقى محبوساً في صدرك سينطفئ. الضوء الذي تشاركه... يعيش إلى الأبد.

أغلقت الدفتر. وضعت القلم جانباً. نظرت إلى القمر مرة أخرى. ابتسمت. كانت تعرف أن هذه القواعد ليست نهاية. كانت بداية. بداية رحلتها. رحلة أمل. التي لم تكتب بعد.

في صباح اليوم التالي، دخلت أمل إلى مكتب والدها مرة أخرى. لكن هذه المرة، لم تكن تحمل دفترها الأزرق. كانت تحمل خبراً. قالت: أبي. رايان رفع رأسه: نعم؟ قالت: سمعت شيئاً الليلة الماضية. صوتاً في الممر. شخصاً يتحدث. همساً. لم أعرف من هو. لكني سمعت اسماً. اسم كيريل. رايان تجمد. نظر إلى أمل بجدية: أين سمعت هذا؟ قالت: في الممر المؤدي إلى غرفة الأرشيف. كان الصوت خافتاً. كان رجل. قال شيئاً عن اجتماع. عن مكان. عن موعد. ثم سمعت خطوات. فذهبت إلى غرفتي. رايان وقف فوراً. نادى عزيز. قال: أمل سمعت الخائن. الليلة الماضية. في الممر. كان يتحدث إلى كيريل. عزيز قال: سنضاعف الحراسة. سنراقب كل شيء. لكن رايان رفع يده: لا. دعه. دعه يخطط. دعه يظن أننا لا نعرف. أمل سألت: ماذا ستفعل؟ قال رايان: سأنتظر. سأتركه يذهب إلى اجتماعه. ثم سنتبعه. سنعرف أين يختبئ كيريل. سنعرف ماذا يخطط. سنعرف كل شيء.

نظر رايان إلى أمل. كانت واقفة هناك. لم تكن خائفة. كانت هادئة. مركزة. كانت تشبهه. كانت تشبه أمها. كانت تشبه كل من واجه الخطر ولم يهرب. قال: أنتِ قوية. قالت: أعرف. تعلمت منك. ومن أمي. ومن كل هذه القصة. لم أعد طفلة. أنا جزء من هذا الآن. ليس كضحية. بل كشاهدة. كمشاركة. كوريثة. ليس للإمبراطورية. بل للقصة. لقصة هذه العائلة. لقصة الضوء الذي اخترناه.

رايان أومأ برأسه. كان يعرف أن ابنته لم تعد بحاجة لحمايته. كانت تحتاج إلى شيء آخر. إلى ثقته. إلى إيمانه بها. إلى الاعتراف بأنها لم تعد الطفلة التي كانت تخاف عليها. بل الشابة التي ستحمل الإرث. ليس إرث الدم. ليس إرث المال. بل إرث القواعد. القواعد التي كتبتها بنفسها. القواعد التي ستغير كل شيء.

يتبع...

الفصل الرابع عشر

حصار القصر

لم يمر يومان على سماع أمل للهمس في الممر حتى بدأ كل شيء ينهار. في مساء اليوم الثاني، وبينما كان رايان في مكتبه يراجع خطة الشركة للخروج من الحرب الاقتصادية، انقطعت الكهرباء عن القصر. لم يكن انقطاعاً عادياً، بل كان شاملاً. المصابيح انطفأت، الشاشات توقف، أجهزة الإنذار صمتت. لم يكن هناك عاصفة. لم يكن هناك عطل. كان هذا فعلاً متعمداً. عزيز ركض إلى غرفة المراقبة، فوجدها في ظلام دامس. كل الكاميرات ماتت. كل الأجهزة ماتت. القصر كان أعمى. أصم. مكشوفاً.

قال عزيز بصوت منخفض: إنهم هنا. رايان كان واقفاً في الظلام، عيناه تحاولان التكيف. قال: أمل. أين أمل؟ عزيز قال: في غرفتها. الحراس يحرسونها. رايان تحرك نحو الدرج، لكن عزيز أوقفه: سيدي، لا تخرج. إنهم يضربون الكهرباء أولاً، ثم الاتصالات، ثم يهاجمون. هذا أسلوب البارون. رايان قال: أعرف. ولهذا سأكون في غرفة أمل.

صعد رايان الدرج في الظلام. كان يعرف طريقه. كل درجة. كل منعطف. كل جدار. في الطريق، سمع خطوات سريعة في الممر السفلي. ليس خطوات حراسه. خطوات أخرى. خطوات ثقيلة. منظمة. كانوا يدخلون. باب القصر الخلفي فُتح. كان هناك من سهل دخولهم. الخائن. الرجل الذي كان يثق به الجميع. الرجل الذي كان يعمل في الأرشيف منذ أيام البارون. كان قد فتح لهم الأبواب.

وصل رايان إلى غرفة أمل. كانت الباب مغلقاً. طرقه ثلاث مرات. سمع صوتها من الداخل: من؟ قال: أنا. فُتح الباب. كانت أمل واقفة، شاحبة لكنها هادئة. قالت: سمعت أصواتاً. قال: إنهم في الداخل. لا تبتعدي عني. أمل نظرت إليه، لم ترتجف. قالت: ماذا يريدون؟ قال: يريدون كل شيء. لكنهم سيأخذون لا شيء.

نزلا إلى الطابق الأرضي معاً. الحراس كانوا قد تجمعوا، بنادقهم مرفوعة، عيونهم تحدق في الظلام. ثم فجأة، عادت الكهرباء. انفجرت المصابيح. امتلأت القاعة بالضوء. وكانوا هناك. خمسة رجال. في وسطهم، كيريل فولكوف.

كان يقف في ردهة القصر كأنه ضيف. كان يرتدي معطفاً أسود طويلاً. عيناه الزرقاوان كانتا باردتين. قال: أخيراً، رايان. لم نكن نريد أن نصل إلى هذا. لكنك تركتنا بلا خيار.

رايان تقدم خطوة، واقفاً أمام رجاله، أمام أمل، أمام كل شيء. قال: ماذا تريد؟ كيريل قال: ما كنا نريده دائماً. الإمبراطورية. لكن بما أنك قررت أن تحولها إلى شركة نظيفة، إلى شيء لا يشبه البارون، فلم يعد هناك ما نستعيده. لم يعد هناك إمبراطورية. فماذا بقي؟ بقي الانتقام. رايان قال: الانتقام من ماذا؟ مني؟ لأني لم أكن ابناً للبارون؟ كيريل ضحك ضحكة قصيرة: لا. لأنك جعلتنا ننتظر. جعلتنا نصدق أننا سنحصل على شيء. جعلتنا نصدق أننا ورثة. ثم اكتشفنا أن كل شيء كان كذبة. أنت كذبة. الإمبراطورية كذبة. حتى البارون كان كذبة. لم نعد نبحث عن الحقيقة. نبحث عن الخراب. خراب كل ما تبنيه.

أمل وقفت بجانب والدها. لم تختبئ. لم تركض. نظرت إلى كيريل بعينيها الرماديتين. قالت: أنت تشبهه. تشبه البارون. ليس في وجهك. بل في صوتك. في طريقة وقوفك. في الغضب الذي تحمله. كيريل نظر إليها باهتمام: وأنتِ، يا ابنة الوريث، تشبهين أمك. لا أعرف إن كان هذا مدحاً أم ذماً. أمل قالت: إنه مدح. كيريل ابتسم ابتسامة باردة: جميلة وشجاعة. لكن هذا لن ينقذكما.

رفع كيريل يده. رجاله رفعوا أسلحتهم. لكن قبل أن يحدث شيء، انطلق صوت من الخارج. صوت سيارات. صوت رجال. صوت خطوات كثيرة تقترب. عزيز كان قد أرسل إشارة استغاثة قبل انقطاع الكهرباء. كان رجال رايان من خارج القصر يصلون. طوقوا المكان. دخلوا من كل باب. أصبح كيريل ورجاله محاصرين. خمسة رجال داخل قصر مليء بعشرين حارساً. كيريل نظر حوله. لم يبدُ خائفاً. قال: حسناً. أرى أننا تأخرنا. لكن هذا ليس نهاية. هذا مجرد بداية. رايان قال: لا. هذه نهاية. نهاية هذه الحرب. ستغادر الآن. ستعود إلى قصر البارون. وستبقى هناك. وإن عدت، لن أكون رحيماً.

كيريل نظر إلى رايان طويلاً. ثم قال: الرجل الذي يختار الرحمة يظن أنها قوة. لكنها ضعف. سترى. في يوم ما، سترى. ثم أشار إلى رجاله، فأنزلوا أسلحتهم. ساروا نحو الباب. قبل أن يخرج، توقف كيريل، التفت إلى أمل: جدتك كانت ستفتخر بك. لو أن البارون لم يقتلها. ثم خرج.

ساد الصمت. الحراس أعادوا تنظيم صفوفهم. عزيز هرول إلى رايان: سيدي، نطاردهم؟ رايان قال: لا. دعهم يذهبون. هذه الليلة كشفت شيئاً. أمل سألت: ماذا؟ قال: أنهم لا يريدون الإمبراطورية. إنهم يريدون أن يحرقوا كل شيء. ولهذا، يجب أن نكون مستعدين. ليس للهجوم. بل للحرب الطويلة.

في تلك الليلة، جلس رايان في مكتبه، أمل بجانبه، وعزيز أمامه. قال رايان: الخائن. من كان؟ عزيز قال: كان في الخارج. رأيناه يفتح الباب الخلفي. اعتقلناه. رايان قال: ماذا ستفعل به؟ عزيز قال: سنستجوبه. سنعرف كل شيء. رايان نظر إلى أمل: أنتِ سمعتِ اسم كيريل. أنتِ من حذرتِنا. لولاكِ لكانوا داخلين قبل أن نعرف. أمل قالت: لم أفعل شيئاً. فقط سمعت. رايان قال: هذا كثير.

في اليوم التالي، عادت الحياة إلى القصر. الكهرباء عادت. الكاميرات عملت. الأبواب أغلقت. لكن شيئاً لم يعد كما كان. الخوف صار مقيماً. الحراس صاروا أكثر يقظة. النوافذ صارت مغلقة. القصر صار حصناً حقاً. وأمل صارت تعرف أن الطفولة انتهت. أن العالم الذي كانت تحاول فهمه في دفاترها صار يعيش أمامها. ليس في الكتب. بل في الردهات. في الظلام. في وجوه الغرباء الذين يدخلون ليلاً.

وفي مكان ما، في قصر البارون على البحر، كان كيريل فولكوف يجلس وحيداً. كان يفكر في أمل. في عينيها. في صوتها. لم تكن خائفة. كانت تشبه جدتها. المرأة التي ماتت بسبب البارون. كان يعرف أن هذه الفتاة لن تكون سهلة. كان يعرف أنها ستحمل إرثاً لا يشبه إرثه. إرث الضوء. لا إرث الظل. وهذا ما جعله يكرهها أكثر. لأنها كانت تمثل كل ما حُرم منه. لأنها كانت الأمل. وكل ما تبقى له هو الرماد.

يتبع...

الفصل الخامس عشر

اعترافات رايان

في صباح اليوم التالي، كان رايان جالساً في مكتبه، والستائر مسدلة رغم أن الشمس كانت في كبد السماء. لم يذق طعم النوم منذ ليلتين. وجهه كان شاحباً، عيناه غائرتين، لكن يديه لم ترتجفا. كان يرتب أوراقه بهدوء، يضع كل شيء في مكانه. كان يعرف أن هذه الليلة لم تكن نهاية الحرب، بل بداية الجولة الأخيرة. كيريل لن يتوقف. الخائن الذي فتح الباب الخلفي لن يكون آخر الخونة. القصر كان حصناً، لكن الحصون تسقط من الداخل. ولذلك، كان عليه أن يقرر: إما أن يبقى محبوساً في خوفه، وإما أن يفتح النوافذ ويواجه.

دخلت لين المكتب. كانت قد سمعت بكل شيء. لم تسأل عن التفاصيل. كانت تعرف. جلست على الكرسي مقابل رايان، نظرت إليه طويلاً، ثم قالت: أنت لم تنم. قال: سأنام حين ينتهي كل هذا. قالت: ومتى سينتهي؟ قال: حين أتوقف عن الانتظار وأبدأ بالاعتراف. سكتت لين، لم تفهم قصده. رايان قام من كرسيه، مشى نحو النافذة، فتح الستائر. ضوء الشمس دخل فجأة، كأنه يطرد الظلام. قال:

كل هذه السنين وأنا أحاول حماية عائلتي، حماية بيتي، حماية اسمي. لكني لم أحمِ الحقيقة. الحقيقة عن أمي، عن البارون، عن كل ما حدث. كنت أخفيها حتى عن نفسي. والآن، ها هي تلاحقنا. لأن الحقيقة لا تموت. الحقيقة إما أن تقولها، أو تقولك.

التفت إلى لين. عيناه كانتا متعبتين لكنهما صادقتان. قال: أريد أن أعترف لك. ليس لأنك لا تعرفين. بل لأني أريد أن أسمع نفسي وأنا أقولها. سأقولها مرة واحدة. ثم لن أعود إليها. لين قالت: قل. اجلس. رايان جلس على حافة المكتب، نظر إلى يديه، ثم بدأ.

قال: أنا لست ابناً للبارون. ظننت ذلك لأيام، وعشت في رعب من أن يكون دمي دماً ملوثاً. لكن الحقيقة أن البارون لم يكن أبي. كان طيفاً. كان رجلاً دخيلاً أحب أمي، وأراد أن يصنع مني شيئاً. أنا ابن رجل آخر. رجل طيب. رجل مات قبل أن يولد. أمي كتبت لي رسالة. قرأتها. قالت لي إن البارون ليس أبي. قالت لي إن أبي كان مختلفاً. ثم قالت لي إن الحب هو الشيء الوحيد الذي يبقى. رايان توقف،

كأن الكلمات ثقيلة. ثم تابع: لكن هذا ليس كل شيء. أمي لم تمت بالسرطان. قُتلت. قتلها رجال البارون. لأنها كانت تعرف أسراره. لأنها كانت تحبني وتخاف علي. لأنها كانت تعرف أنه وحش قبل أن يعرفه العالم. وأنا عشت كل حياتي أظن أن المرض أخذها. كنت أرى الموت في عينيها، ولا أعرف أن الموت جاءها من عالم البارون. عالمي. عالمنا.

لين كانت صامتة. كانت تعرف بعض هذا من قبل، لكن سماعه من فم رايان، بهذا الصوت، بهذا الاعتراف، كان شيئاً آخر. رايان تابع: لقد قتلت رجالاً. في براغ، في أزقة المدينة، في المستودع، في الغابة. قتلت البارون تقريباً. قتلت نادر شاهين، ظننت أني قتلته، لكنه اختفى. أنا لم أكن بريئاً. كنت وحشاً. الوحش الذي صنعه البارون. الوحش الذي ورث الإمبراطورية. الوحش الذي حاول بعد ذلك أن يصبح إنساناً. لكن الوحش يبقى وحشاً. لا يمكنك أن تمحو ما فعلت. يمكنك فقط أن تحاول. أن تحاول كل يوم. أن تفعل شيئاً واحداً جيداً. أن تعتذر. أن تعترف. أن تتعلم. أن تحب.

وقف رايان. مشى إلى النافذة. حديقة القصر كانت خضراء تحت الشمس. أمل كانت هناك، تجلس على العشب، تمسك بدفترها الأزرق، تقرأ. رايان نظر إليها، ثم قال: أمل هي الأمل الوحيد. ليس اسمها فقط. بل ما تمثله. كل ما فعلته في حياتي، كل الدم الذي سفكته، كل الأخطاء التي ارتكبتها، كلها قادتني إلى هذه اللحظة. إلى أن أكون أباها. إلى أن أراها تكتب قواعدها. إلى أن أصدق أن المستقبل يمكن أن يكون أفضل. لكني أعرف أيضاً أن هذا الأمل مهدد. كيريل لا يريد المال. لا يريد الشركة. يريد أن يحرق كل شيء. لأنه يكرهني. لأني خذلته. لأني كنت الابن الذي اختاره البارون، وهو كان الابن الذي تركه في الظل. هو لا يريد الانتقام مني فقط. يريد أن يثبت أنه أفضل مني. يريد أن يأخذ مني ما لا يمكن استرجاعه.

لين نهضت عن الكرسي. تقدمت نحوه. وقفت بجانبه عند النافذة. قالت: وماذا تريد أنت؟ رايان سكت طويلاً. ثم قال: أريد أن أترك لأمل شيئاً لا يمكن أن يسرق. ليس المال. ليس الشركة. ليس القصر. بل الحقيقة. الحقيقة الكاملة. التي عرفتها أنا متأخراً. أريد أن تكبر وهي تعرف من هي. ليس ابنة الوريث. ليس حفيدة البارون. بل ابنة أمها. ابنتك. ابنة الحب الذي حاولنا حمايته. أريد أن تكتب قواعدها دون أن تلاحقها أشباحنا. أريد أن تتعلم من أخطائنا دون أن تدفع ثمنها. هذا ما أريده. ليس الانتصار. بل الخلاص.

التفتت لين إليه. عيناها كانتا مبللتين. قالت: هذا أعظم اعتراف سمعته منك. لم يكن عن الدم. كان عن الروح. رايان نظر إليها. لم يبتسم، لكن عينيه لمعتا. قال: أنا متعب. متعب من الحرب. متعب من الكراهية. متعب من مطاردة الأشباح. لكني لن أستسلم. ليس الآن. لأن أمل تستحق أن ترى النهاية. النهاية التي لم يرها جيلنا. النهاية التي لا يملكها إلا من اختار الضوء.

في تلك الليلة، وبينما كان القصر هادئاً، جلس رايان في غرفة أمه القديمة. الغرفة التي حولها منذ سنوات إلى مكتبة صغيرة. كان قد وضع صورة أمه على الرف. كان يجلس الآن أمامها. كأنها تنظر إليه. كان يتحدث إليها بصوت خافت. قال: أنا آسف. على كل شيء. على ما فعلته. على ما لم أفعله. على ما عرفته متأخراً. على كل مرة لم أقل فيها الحقيقة. على كل مرة ظننت فيها أن القوة هي الحل. على كل مرة نسيت فيها أنك كنت معي. أخرج رسالتها من معطفه. قرأها مرة أخرى. ثم نظر إلى الصورة. قال: سأكمل. ليس من أجل الانتقام. بل من أجل السلام. سلامك أنت. سلام أمي. سلام كل من ماتوا بسبب هذا العالم. سأكمل. حتى لا يموت أحد آخر بسبب كذبة. حتى لا يولد طفل آخر في هذا الظلام. حتى لا تصبح أمل يوماً ما امرأة مثلك، تكتب رسالة لابنها، ولا يعرف إن كان سيقرأها.

أغلق رايان الرسالة. وضعها قرب الصورة. وقف. كان يعرف أن هذه الاعترافات لم تكن نهاية. كانت بداية. بداية الطريق نحو الخلاص. نحو الفصل الأخير. نحو اللعبة الأخيرة. التي ستحدد كل شيء.

يتبع...

الفصل السادس عشر

ما لم يقله البارون

في صباح اليوم التالي، استيقظ رايان مبكراً. لم يكن قد نام طويلاً، لكنه شعر بنشاط غريب، كأن الاعتراف الذي قاله ليلاً رفع عن كتفيه حملاً ثقيلاً. كان يعرف أن الطريق لم ينتهِ، لكنه شعر أنه صار أخف. ارتدى معطفه، نزل إلى السيارة، وانطلق وحده إلى قرية سليم نعمان. كان يريد أن يسأله سؤالاً أخيراً. سؤالاً لم يسأله من قبل. سؤالاً عن البارون. ليس عن ماضيه، ولا عن جرائمه، بل عن نهايته. عن آخر أيامه. عن الأشياء التي لم يقلها.

وصل رايان إلى القرية بعد الظهر. السماء كانت صافية، البحر كان أزرق كالمرآة. وجد سليم نعمان جالساً على كرسيه الخشبي، لكن هذه المرة لم يكن ينظر إلى البحر. كان ينظر إلى صندوق صغير في يده. صندوق أسود. صندوق لم يره رايان من قبل. عندما اقترب، رفع سليم عينيه. قال: كنت أعرف أنك ستعود. رايان جلس بجانبه. قال: هناك شيء لم تقله لي. شيء عن آخر أيام البارون. سليم أومأ برأسه ببطء: نعم. لم أقله. ليس لأني كنت أخفيه. بل لأنك لم تكن مستعداً لسماعه. الآن، ربما تكون كذلك.

فتح سليم الصندوق الأسود ببطء. في داخله، كان هناك شريط تسجيل قديم. شريط كاسيت. قال سليم: قبل أن يموت البارون، أرسل إلي هذا الشريط. طلب مني أن أحتفظ به. قال إنه إن عاد رايان يوماً ليسأل، أعطه إياه. لكنه حذرني. قال إن ما في هذا الشريط سيغير كل شيء. رايان نظر إلى الشريط. كان صغيراً، أسود، قديماً. قال: هل سمعته؟ سليم هز رأسه: لا. لم أجرؤ. قال البارون إنه لي وحدك. لم أفتحه. لم أستمع إليه. كنت خائفاً. خائفاً من أن أسمع صوته بعد موته. خائفاً من أن أعرف ما لم يقل.

أعطى سليم الشريط إلى رايان. كان هناك جهاز تسجيل صغير في منزل سليم، جهاز قديم يعمل بالكاسيت. دخلا إلى الداخل. سليم وضع الشريط في الجهاز. ثم نظر إلى رايان: هل أنت متأكد؟ رايان أومأ برأسه. ضغط سليم على زر التشغيل.

في البداية، لم يكن هناك سوى صمت. ثم صوت تنفس. ثم صوت البارون. كان صوته مختلفاً. لم يكن قوياً. لم يكن بارداً. كان ضعيفاً. متعباً. مكسوراً. قال:

"رايان. إن كنت تسمع هذا، فأنت ما تزال على قيد الحياة. وأنا، كما يبدو، لم أعد كذلك. هذا جيد. الموت يليق بي أكثر من الحياة. لكن قبل أن أرحل، هناك أشياء يجب أن تعرفها. أشياء لم أجرؤ على قولها لك. لا لأني لم أكن أريد، بل لأني لم أستطع. كنت جباناً. طوال حياتي كنت جباناً. التنمر الذي رأيته في طفولتي، الحروب التي هربت منها، الفقر الذي عشته، كل ذلك لم يجعلني قوياً. جعلني خائفاً. الخوف هو ما دفعني لبناء الإمبراطورية. ليس الطموح. ليس الحب. الخوف. الخوف من أن أكون ضعيفاً. الخوف من أن أكون لا أحد. الخوف من أن أعود طفلاً جائعاً في حي فقير. فبنيت وحشاً. وسميته الإمبراطورية. وسميت نفسي البارون. ونسيت أني في الداخل ما زلت ذلك الطفل الخائف."

توقف الصوت للحظة. كان يمكن سماع أنفاس البارون، بطيئة، مرتجفة. ثم تابع:

"عندما رأيتك أول مرة، رأيت فيها. رأيت أمك. عيناك كانتا عينيها. صوتك كان صوتها. مشيتك كانت مشيتها. لم أستطع النظر إليك دون أن أراها. ودون أن أتذكر أني قتلتها. لم أقتلها بيدي. لكني قتلتها بحياتي. بالعالم الذي اخترته. بالأعداء الذين صنعتهم. قتلتها لأنها أحبتني، وأنا لم أكن أستحق حباً. قلت لك إن السرطان أخذها. كذبت. كانت الحقيقة أقسى. الحقيقة أني أخذتها. أنا. البارون. الرجل الذي أحبك. الرجل الذي أرادك ابناً له. الرجل الذي دمر كل شيء لمسه."

رايان كان جالساً على الكرسي، جسده متصلب، عيناه مثبتتان على الجهاز. سليم كان واقفاً عند النافذة، ظهره للغرفة، كأنه لا يستطيع أن ينظر إلى رايان. استمر الصوت:

"لم أخبرك عن كيريل. عن الآخرين. عن التلاميذ الذين صنعتهم في الشرق. ظننت أن إخفاءهم سيحميك. ظننت أنك الوريث الوحيد. لكني كنت أعرف أنهم موجودون. كنت أعرف أنهم سيأتون يوماً ما. كيريل... كيريل كان الأكثر إصراراً. كان يريد أن يكون مثلك. كان يريد أن يكون الوريث. لكنه لم يكن يملك ما تملكه أنت. لم يكن يملك قلبها. لم يكن يملك عينيها. لم يكن يملك الضوء. فحولته إلى ظل. ظل يحمل ضغينة. ظل ينتظر. والآن، بعد موتي، سيخرج الظل. سيأتي إليك. لا ليأخذ الإمبراطورية. بل ليأخذ ما تبقى منك. ليحطمك. لأنك تمثل كل ما حُرم منه. لأنه يراك في المرآة، ويرى أنه ليس أنت."

توقف الصوت. رايان سمع صوت أنفاس عميقة، ثم صوت سعال خفيف، ثم تابع البارون:

"أنا لا أطلب منك أن تسامحني. لا أستحق. لكني أطلب منك شيئاً واحداً. لا تدع كيريل يصل إلى ابنتك. لا تدعه يلمسها. لا تدعه يحولها إلى ما صرنا عليه نحن. هي أمل. أنا لا أؤمن بالآخرة، ولا بالجنة، ولا بالنار. لكني أؤمن بأن هناك شيئاً يبقى بعدنا. شيئاً في دمنا، في أسمائنا، في وجوه أبنائنا. لا تدع هذا الشيء يكون ملعوناً. اجعله نقياً. اجعله حراً. كما كان يجب أن أكون. كما كان يجب أن تكون أنت."

توقف الصوت. كان هناك صمت طويل. ثم قال البارون بصوت خافت جداً، كأنه يبتعد عن المسجل:

"أمي... كانت ستخاف مني."

ثم انتهى الشريط.

جلس رايان صامتاً. لم يتحرك. لم ينطق. كان ينظر إلى الجهاز، إلى الشريط الذي توقف عن الدوران، إلى الصمت الذي عاد إلى الغرفة. كان يشعر بأن صدره ممتلئ بشيء لا يوصف. ليس حزناً. ليس غضباً. شيء أكبر. شيء يشبه الإدراك. أن البارون، في نهايته، لم يكن يسعى للخلاص. كان يسعى للفهم. فهم ما حدث. فهم لماذا صار ما صار. فهم أنه، في النهاية، كان مجرد طفل خائف، حاول أن يصبح وحشاً، واكتشف أن الوحش لا يحمي أحداً، ولا ينجو.

سليم التفت ببطء، نظر إلى رايان. قال: هل أنت بخير؟ رايان قام من كرسيه. لم يقل شيئاً. مشى إلى الباب، خرج إلى الخارج. البحر كان لا يزال أزرق. الريح كانت لا تزال ناعمة. لكن رايان كان يرى العالم مختلفاً. كان يرى الأفق، وكان يعرف أن هناك شيئاً خلفه. شيئاً ينتظر. ليس كيريل فقط. بل النهاية. نهاية كل شيء بدأه البارون. نهاية العائلة. نهاية الإرث. نهاية الخوف.

عند عودته إلى القصر، دخل مكتبه، جلس، وكتب رسالة. رسالة قصيرة إلى أمل. لم تكن رسالة اعتراف. لم تكن رسالة نصائح. كانت رسالة حب. كتب: "أمل، لا تدعي أحداً يخبرك من أنت. حتى أنا. أنت لست وريثة الإمبراطورية. لست ابنة الوحش. لست حفيدة البارون. أنت أمل. فقط أمل. وهذا يكفي. وسيظل يكفي. إلى الأبد." طوى الرسالة، ووضعها في درج مكتبه. كان يعرف أنها ستقرأها يوماً ما. ليس الآن. بل حين تحتاجها.

ثم خرج رايان إلى الحديقة. وجد أمل جالسة تحت شجرة الستارية، دفترها الأزرق مفتوح على ركبتيها. جلس بجانبها دون أن يتكلم. نظرت إليه. قالت: عدت. قال: نعم. قالت: ماذا وجدت؟ قال: صوتاً. صوتاً من الماضي. قالت: ماذا قال؟ قال: قال إنه كان خائفاً. قالت: من ماذا؟ قال: من كل شيء. من الفقر. من الضعف. من الحب. من نفسه. قالت: وماذا فعلت أنت؟ قال: أدركت أنني لم أعد خائفاً مثله. لأني أملك ما لم يملكه. أملك أنا. أملككما. أملك هذه اللحظة.

أمل ابتسمت ابتسامة صغيرة. ثم عادت إلى دفترها. رايان نظر إلى السماء. كانت الشمس تميل نحو الغروب. كان يعرف أن الأيام القادمة ستكون صعبة. لكنه كان مستعداً. لأنه سمع صوت البارون. ولأنه فهم. ولأنه، لأول مرة منذ زمن طويل، شعر بأنه حر. ليس من الماضي. بل من الخوف. الخوف الذي ورثه من البارون. الخوف الذي صار الآن غباراً في الريح.

يتبع...

الفصل السابع عشر

اللعبة الأخيرة

في اليوم التالي، استيقظ رايان على صوت المطر يضرب نوافذ القصر. كان المطر غزيراً هذه المرة، ليس كمطر الأيام الماضية، بل كأن السماء تحاول أن تغسل شيئاً عالقاً في جدران المدينة. لم ينهض من سريره فوراً. بقي مستلقياً، ينظر إلى السقف، يستمع إلى صوت المطر، ويفكر في كل ما حدث. الشريط الذي سمعه في بيت سليم نعمان كان لا يزال يتردد في ذهنه. صوت البارون، كلماته الأخيرة، اعترافه بأنه كان خائفاً. كل ذلك كان يفتح جراحاً قديمة، لكنه كان يفتح شيئاً آخر أيضاً. شيئاً يشبه الباب المغلق. باباً نحو النهاية.

لين كانت نائمة بجانبه، أو هكذا ظن. كانت في الحقيقة مستيقظة، تراقبه من طرف عينها. كانت تعرف أن شيئاً ثقيلاً يدور في عقله. لم تسأله. كانت تعرف أن رايان لا يتكلم إلا عندما يكون مستعداً. لكنها كانت تعرف أيضاً أن الوقت يمر، وأن اللعبة التي بدأها كيريل تزداد خطورة يوماً بعد يوم. الحرب الاقتصادية كانت تأكل أطراف الشركة. الحلفاء القدامى كانوا ينسحبون. الموظفون كانوا يتهامسون في الممرات. والقلق كان يتسرب إلى كل زاوية في القصر.

عندما نهض رايان أخيراً، كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة. ارتدى قميصه وبنطاله، نزل إلى مكتبه، وجد عزيز ينتظره عند الباب. كان عزيز يحمل ملفاً جلدياً سميكاً، ووجهه كان متوتراً أكثر من المعتاد. قال: سيدي، هناك تطور. رايان جلس خلف مكتبه، أشار إلى عزيز بالجلوس. قال: ما الذي حدث؟ فتح عزيز الملف، أخرج منه أوراقاً مطبوعة، صوراً، تقارير. قال: كيريل فولكوف لم يعد وحده. انضم إليه آخرون. رجال من الإمبراطورية القديمة. من تبقى منهم بعد سقوط البارون. حوالى عشرين رجلاً. جميعهم كانوا مختفين. الآن عادوا. تجمعوا في قصر البارون على البحر. رايان نظر إلى الصور. كانت صوراً ملتقطة من مسافات بعيدة. رجال يتجولون في فناء القصر. سيارات. أسلحة. قال رايان: من أين حصلت على هذه الصور؟ قال عزيز: من طائرة استطلاع صغيرة. أرسلناها الأسبوع الماضي. كنا نراقب القصر. ظننا أنه فارغ. لكنه الآن مزدحم.

رايان قلب الصور ببطء. كان يرى وجوهاً مألوفة. وجوه رجال عملوا تحت البارون في سنوات ما قبل سقوطه.

رجال اختفوا بعد موته. رجال ظنهم ماتوا أو هربوا أو نسوا. ها هم يعودون. يتجمعون حول كيريل. ليس من أجل الإمبراطورية، بل من أجل الثأر. ثأر من رايان الذي حول الإمبراطورية إلى شركة. ثأر من رجل رفض أن يكون وحشاً. رفع رايان رأسه إلى عزيز: وماذا يخططون؟ قال عزيز: لا نعرف بالضبط. لكن هناك معلومة خطيرة. أحد عملائنا داخل القصر. رجل يعمل طباخاً. قال إنه سمع كيريل يتحدث مع رجاله. كان يقول إن النهاية ستكون في مكان واحد. مكان يحمل رمزية خاصة. مكان بدأ فيه كل شيء.

رايان نظر إلى عزيز: براغ. قال عزيز: نعم. براغ. يريدون أن ينتهي كل شيء في براغ. في نفس الغرفة. في نفس الفندق. في نفس الجسر. يريدون أن يعيدوا التاريخ. لكن هذه المرة، لن تكون النهاية كما كانت. رايان سكت. براغ. المدينة التي بدأ فيها انهياره الأول. المدينة التي تعلم فيها القاعدة الأولى. المدينة التي كاد يموت فيها، ثم عاد منها حياً. كانت براغ دائماً حاضرة في كل مفترق طرق في حياته. والآن ها هي تعود. ليست كذكرى. بل كساحة معركة أخيرة.

قال رايان: متى؟ قال عزيز: لا نعرف. لكن الاجتماع كان يتحدث عن أسبوعين. ربما أقل. رايان وقف، مشى إلى النافذة. المطر كان لا يزال يهطل، لكنه بدأ يخف. كان ينظر إلى الحديقة، إلى الأشجار المبللة، إلى الضباب الذي يغطي الأفق. قال: كيريل يريد أن يجذبني إلى هناك. يريد أن يقاتلني في المكان الذي كاد البارون أن يكسرني فيه. يريد أن يثبت أنني ما زلت ذلك التلميذ الخائف. لكنه لا يعرف أن براغ لم تعد تخيفني. براغ صارت جزءاً مني. جرحاً التئم. ندبة أفتخر بها. عزيز سأل: ماذا سنفعل؟ قال رايان: سنذهب. لكن ليس كما يتوقعون. ليس وحدي. ليس بلا خطة. سنذهب ونحن مستعدون. مستعدون لأي شيء.

في الأيام التي تلت، بدأ رايان يخطط. لم يكن يريد حرباً مفتوحة. كان يريد شيئاً أكثر دقة. أكثر هدوءاً. كان يريد أن ينهي كل شيء دون أن يخسر أحداً. استدعى رجاله الأوفياء، الرجال الذين بقوا معه منذ بداية التحول، الرجال الذين آمنوا بالشركة النظيفة. كانوا قليلين، لكنهم كانوا كافيين. عقد اجتماعات سرية في غرفة تحت الأرض. وضع خرائط براغ على الطاولة. حدد الأماكن التي يمكن أن ينصب فيها كيريل كميناً. الجسر. الفندق. الغابة. المستودع. كان يعرف هذه الأماكن جيداً. كان يعرف أزقتها، ظلالها، طرق هروبها. لم يكن ذاهباً إلى مدينة غريبة. كان ذاهباً إلى ماضيه. إلى المكان الذي صار فيه ما هو عليه. وإلى المكان الذي سيتقرر فيه كل شيء.

في إحدى الليالي، بينما كان رايان غارقاً في الخرائط، دخلت لين إلى الغرفة. كانت تحمل كوباً من الشاي. وضعته أمامه. قالت: أنت ذاهب إلى براغ. ليس سؤالاً. رايان نظر إليها: نعم. قالت: وأنا قادمة معك. رايان توقف. نظر إليها بجدية: لا. هذه المرة لا. لين قالت: لماذا؟ لأنها خطيرة؟ كل مرة كانت خطيرة. لأنك تريد حمايتي؟ لم تعد هناك حاجة. أنا جزء من هذا. دائماً كنت. رايان قال: أمل. من سيبقى مع أمل؟ لين قالت: عزيز. سيحميها. القصر سيكون آمناً. لكنك لن تذهب وحدك إلى هناك. ليس مرة أخرى. رايان كان يعرف أنها محقة. كان يعرف أن الذهاب وحده إلى براغ كان قراراً غبياً. لكنه كان يشعر أيضاً أن هذه المعركة تخصه وحده. معركة التلميذ ضد الابن الآخر. معركة الوريث ضد الظل. نظر إلى لين طويلاً. ثم قال: حسناً. لكن ستبقين بعيدة عن المواجهة. ستكونين في مكان آمن. لين قالت: سأكون حيث أكون. كما كنت دائماً. ثم خرجت من الغرفة، تركت رايان مع خرائطه، مع أفكاره، مع براغ التي تقترب.

في اليوم التالي، وقبل أن يغادر القصر، دخل رايان إلى غرفة أمل. كانت جالسة على سريرها، دفترها الأزرق مفتوحاً على ركبتيها. نظرت إليه. قالت: أنت مسافر. قال: نعم. قالت: إلى براغ؟ قال: نعم. كيف عرفت؟ قالت: لأني سمعت الحديث في المكتب. ولأني أعرف أن كل شيء بدأ هناك. رايان جلس على حافة السرير. قال: أمل، أريدك أن تعرفي أنني سأعود.

ليس هذا وداعاً. ليس هذا ما يشبه النهاية. أنا ذاهب لأغلق الباب الأخير. الباب الذي فتحه البارون قبل سنوات طويلة. لم أعد خائفاً منه. لكني أريد أن أغلقه. من أجلك. من أجل أمك. من أجلنا جميعاً.

أمل نظرت إليه بعينيها الرماديتين. كانت هادئة. قالت: لا أريدك أن تغلق الباب من أجلي. أريدك أن تغلقه من أجلك أنت. لأنك تستحق أن تعيش بلا أشباح. رايان شعر بأن كلماتها تخترقه. كانت ابنته أكثر حكمة منه. كانت تفهم ما يعجز عنه. قال: سأفعل. سأغلق الباب. سأعود. ثم سنجلس معاً ونكتب القاعدة السادسة. ابتسمت أمل: القاعدة السادسة؟ قال: نعم. القاعدة التي ستكتبينها بعد عودتي. القاعدة التي ستحمل اسم السلام. أومأت أمل برأسها. قالت: سأنتظرك.

خرج رايان من غرفة أمل. نزل إلى السيارة. كان المطر قد توقف أخيراً. الشمس كانت تخرج من خلف الغيوم. صعد رايان إلى السيارة، لين بجانبه، عزيز على المقعد الأمامي. قال عزيز: الطائرة جاهزة. سنصل إلى براغ قبل الغروب. رايان نظر من النافذة، إلى القصر وهو يبتعد. كان يعرف أن هذه الرحلة لن تكون مثل الرحلات السابقة.

هذه المرة، لن يكون هناك حل وسط. لن يكون هناك رحمة. لن يكون هناك عودة إلى الوراء. لكنه كان مستعداً. لأنه لم يعد ذلك الرجل الذي دخل براغ أول مرة. لقد صار شيئاً آخر. صار أباً. صار زوجاً. صار رجلاً يعرف ما يستحق القتال من أجله.

وحين أقلعت الطائرة، نظر رايان إلى السماء. كانت الغيوم تتفرق. كان يرى الأفق بوضوح. كان يعرف أن براغ تنتظره. بجسرها. بضبابها. بذكرياتها. لكنه كان يعرف أيضاً أن براغ هذه المرة ستشهد نهاية مختلفة. نهاية لا تشبه البداية. نهاية يكتبها هو. لا البارون. لا كيريل. هو. رايان الموراتي. الوريث الذي اختار الضوء.

يتبع...

الفصل الثامن عشر

تحت الرماد

كانت براغ تنتظرهم كما تنتظر المدينة أبناءها العائدين، بشوارعها الضيقة، وجسورها الحجرية، وضبابها الذي لا يتبدد. حطت الطائرة في مطار صغير خارج المدينة، وكانت السماء تميل إلى الرمادي، والشمس تختبئ خلف طبقات من الغيوم الثقيلة. نزل رايان من الطائرة أولاً، ثم لين، ثم عزيز وستة من الرجال الأوفياء. لم يحملوا أسلحة ظاهرة، لكن كل واحد منهم كان يعرف أن هذه الرحلة قد تكون الأخيرة.

تحركوا في سيارتين أسودتين عبر الطرق المبللة، والمطر يهطل بخفة كأنه يرش المدينة بغبار الماء. رايان كان صامتاً، ينظر من النافذة إلى الأبنية القديمة، إلى التماثيل، إلى الأزقة. لم تكن هذه براغ التي عرفها قبل عشرين عاماً، ولم تكن نفس المدينة التي جاءها قبل سنوات مع لين لمواجهة البارون. كانت مدينة أخرى. مدينة تحمل في حجارتها كل الأصوات التي أراد أن ينساها، وكل الوجوه التي عادت تطارده.

قال عزيز: وصلت معلومات جديدة. كيريل في فندق القصر الذهبي. نفس الفندق. الغرفة 7 محجوزة. يبدو أنهم يريدون أن يبدؤوا من حيث بدأ كل شيء. رايان لم يجب فوراً. كان يعرف أن كيريل يريد استدراجه إلى الغرفة 7.

الغرفة التي نام فيها مع لين لأول مرة. الغرفة التي تغير فيها كل شيء. لكنه كان يعرف أيضاً أن كيريل لا يفهم ما تعنيه هذه الغرفة. بالنسبة لرايان، لم تكن الغرفة 7 مكاناً للهزيمة، بل مكاناً للتحول. هناك، في تلك الليلة، لم يمت شيء، بل وُلد شيء آخر. شيء اسمه الإنسانية. قال رايان بصوت هادئ: لن نذهب إلى الفندق. سننتظر حتى يأتي إلينا. أين؟ في المكان الذي لا يمكن أن يرفضه. جسر تشارلز. عند منتصف الليل. هذا هو المكان الذي علمني فيه البارون القاعدة الأولى. هناك سيتوقع أن يجدني. وهناك سأكون.

كانت الخطة بسيطة لكنها محكمة. ستة رجال على طرفي الجسر، عزيز يراقب من بعيد، ولين تبقى في مكان آمن في شقة قريبة تطل على النهر. رايان نفسه سيقف وحده في منتصف الجسر، في المكان الذي وقف فيه البارون قبل عشرين عاماً، في المكان الذي بدأ فيه كل شيء. كان يعرف أن هذه اللحظة هي ما كان ينتظرها طوال حياته. ليس لمواجهة كيريل، بل لمواجهة الماضي نفسه. لمواجهة الطفل الخائف الذي كانه. لمواجهة الوحش الذي صنعه البارون. لمواجهة كل الظلال التي لاحقته عبر السنين.

حل المساء ببطء، والمطر استمر في الهطول. رايان وقف عند نافذة الشقة التي استأجروها لليلة واحدة، ينظر إلى نهر فلتافا وهو يجري أسفله، إلى الجسر القديم الذي يمتد فوق الماء، إلى التماثيل التي تنتظر في الظلام. كانت المدينة هادئة. قلة من الناس في الشوارع. براغ كانت تعرف أن شيئاً سيحدث الليلة. كانت تعرف أن الأشباح عادت. لين جاءت ووقفت بجانبه، لم تلمسه، لم تتكلم. فقط وقفت هناك، تنظر معه إلى الجسر. بعد لحظات، قال رايان: قال لي البارون مرة إن الحب هو الجرح الذي لا يلتئم. كان مخطئاً. الحب ليس جرحاً. الحب هو الشيء الوحيد الذي يجعل الجروح تُحتمل. لين نظرت إليه، عيناها تلمعان تحت الضوء الخافت. قالت: لماذا تقول هذا الآن؟ قال: لأنني أريد أن أتذكر لماذا أنا هنا. ليس للانتقام. ليس للكراهية. بل للحب. حب أمل. حبك. حب الحياة التي نبنيتها. هذا ما سيجعلني أمشي إلى ذلك الجسر الليلة. ليس لأنني لا أخاف. بل لأنني أحب.

لم يخلدا إلى النوم. جلسا في صمت، ينتظران. عند الحادية عشرة، تحرك رايان. ارتدى معطفه الأسود. لين قالت: سأكون قريبة. قال: أعرف. ثم نزل إلى الشارع.

كان المطر قد خف، لكن الرذاذ ما يزال يعلق في الهواء. مشى رايان نحو الجسر بخطوات ثابتة. كان الجسر يمتد أمامه كطريق إلى المجهول. مصابيحه القديمة تبعث ضوءاً باهتاً. التماثيل على جانبيه تقف كشهود صامتين. لا أحد يمر. المدينة كانت خالية. حين وصل إلى منتصف الجسر، توقف. نظر إلى المياه السوداء تتدفق من تحته. تنفس بعمق. ثم انتظر.

لم ينتظر طويلاً. سمع خطوات. ليست خطوات رجل واحد. خطوات عديدة. قادمة من الطرف الآخر للجسر. ظهرت أشكال من الضباب. خمسة. عشرة. ربما أكثر. كانوا يسيرون ببطء، كأنهم لا يستعجلون. في مقدمتهم، كان كيريل فولكوف. كان يرتدي معطفاً أسود طويلاً، وقبعة، وعيناه الزرقاوان تتقدان في الظلام. خلفه، كان رجاله ينتشرون. رايان لم يتحرك. بقي واقفاً في مكانه، يداه في جيبي معطفه، وجهه هادئ.

توقف كيريل على بعد خطوات قليلة. نظر إلى رايان. قال: أتيت. رايان قال: كنت تعرف أنني سآتي. كيريل ابتسم ابتسامة باردة: أعرفك. أنت لا تهرب من المواجهات. حتى حين تكون خاسراً. رايان قال: لم أخسر بعد. كيريل ضحك ضحكة قصيرة: خسرت منذ البداية. خسرت حين ظننت أنك تستطيع أن تصبح إنساناً. الوحش لا يصبح إنساناً.

الوحش يظل وحشاً. أنت تقف هنا، على هذا الجسر، وتظن أنك مختلف. لكنك لست كذلك. أنت ابن البارون. ليس بالدم، بل بالتربية. صنعك كما يصنع النحات تمثاله. وكل ما تحاول بناءه الآن هو مجرد محاولة يائسة للهروب من حقيقتك.

رايان لم يرفع صوته. قال: أنا لست وحشاً. كنت أظن ذلك. لكن الحقيقة أن الوحش ليس من يفعل أشياء وحشية. الوحش هو من يتوقف عن الشعور. أنا شعرت. بكل شيء. بالألم، بالندم، بالحب. أنت لا تشعر. أنت فقط تحمل الضغينة. وهذا ما يجعلك أنت الوحش. لا أنا.

كيريل تقدم خطوة. وجهه كان متوتراً. قال: تكلم كثيراً. لكن الكلمات لن تنقذك. هذه الليلة ستنتهي. ليس بموتك فقط. بل بموت كل ما تمثله. سنحرق الإمبراطورية. سنحرق الشركة. سنحرق القصر. سنتركك بلا شيء. ثم، فقط حين تصبح بلا شيء، ستعرف أنك كنت خاسراً منذ البداية. رايان قال: افعل ما شئت. لكنك لن تكسرني. لأنني لم أعد مبنياً على الإمبراطورية. أنا مبني على شيء آخر. على حب أمي. على حب ابنتي. على حب امرأة جعلتني أريد أن أكون أفضل. هذا لا يمكن حرقه. هذا لا يمكن سرقته. هذا ما سيبقى. بعد كل شيء.

صمت كيريل. كان ينظر إلى رايان بعينين مملوءتين بالكراهية. ثم رفع يده. رجاله رفعوا أسلحتهم. ولكن في تلك اللحظة، سمع صوت صفارة. ثم أصوات خطوات سريعة. رجال رايان خرجوا من الظلال على طرفي الجسر. كانوا قد تحركوا بصمت. الآن صاروا يطوقون رجال كيريل. عزيز ظهر على أحد الجوانب. صرخ: لا أحد يتحرك. كيريل نظر حوله. لم يبدُ متفاجئاً. قال: حسناً. أرى أنك تعلمت. لكنك ما تزال لا تفهم. هذه ليست مواجهة بيني وبينك. هذه مواجهة بين فكرتين. فكرة أن العالم يجب أن يكون غابة. وفكرة أن العالم يمكن أن يكون شيئاً آخر. أنت اخترت الثانية. أنا اخترت الأولى. وسنرى أيهما أقوى.

رايان قال: لا. هذا هو خطؤك. هذه ليست مواجهة بين فكرتين. هذه مواجهة بين رجل قرر أن يتغير، ورجل قرر أن يبقى. أنت لم تختر شيئاً. أنت ورثت. ورثت الكراهية، ورثت الظل، ورثت الفراغ الذي تركه البارون. أنا ورثت شيئاً آخر. ورثت الحب. ورثت الضوء. ورثت رسالة أمي التي قالت لي إن الحب هو الشيء الوحيد الذي يبقى. وهذا ما جعلنا مختلفين. ليس لأنني أفضل منك. بل لأنني اخترت.

كان الجسر صامتاً. الريح كانت تمر عبر التماثيل. النهر في الأسفل يهمس. كيريل نظر إلى رايان طويلاً. ثم قال: اخترت؟ من قال لك إن الاختيار مجاني؟ الاختيار ثمنه باهظ. اخترت الحب؟ حسناً. سترى كم سيكلفك الحب. ثم التفت إلى رجاله، وأشار بيده. رجاله أنزلوا أسلحتهم. كيريل قال: لن نتحارب الليلة. ليس هكذا. سأمنحك أسبوعاً. أسبوعاً لتدرك أن ما بنيته هش. أسبوعاً لتشاهد كل شيء ينهار. ثم سأعود. ليس إلى هذا الجسر. بل إلى قصتك. إلى أمل. إلى كل ما تحب. وسأجعلك تختار. اختيارك الأول: الحب أو الحياة. رايان قال: أنا لا أختار بينهما. الحب هو الحياة. كيريل ابتسم ابتسامة مريرة: هذا ما سيقودك إلى النهاية.

ثم استدار كيريل ومشى بعيداً. رجاله تبعوه. اختفوا في الضباب. رايان بقي واقفاً في منتصف الجسر. كان قلبه ينبض بقوة. كان يعرف أن هذه الليلة لم تكن نهاية. كانت مجرد مقدمة. مقدمة للفصل الأخير. الفصل الذي سيكون تحت الرماد. حيث كل شيء سيتقرر. حيث كل الحكايات ستنتهي. وحيث سيعرف الجميع من هو الوريث الحقيقي.

عاد رايان إلى الشقة. لين كانت تنتظره عند الباب. قالت: سمعت. رايان خلع معطفه. قال: كيريل لا يريد مواجهة مباشرة. يريد أن يحرق كل شيء ببطء. يريد أن يراني أنهار. لكنه لا يعرف أنني لم أعد أملك شيئاً أخاف عليه. لأنني أملك كل شيء لا يمكن أن يُحرق. لين قالت: وماذا الآن؟ قال: الآن، سنعود. ليس للقصر. بل إلى أمل. ثم نستعد. لأن الأسبوع القادم سيكون الأخير. وبعده، لن يكون هناك ظل. لن يكون هناك إرث. لن يكون هناك إلا نحن.

جلس رايان على الكرسي، نظر من النافذة إلى الجسر البعيد. كان الجسر ما يزال هناك، تحت المطر، تحت السماء الرمادية. لكن رايان لم يعد يراه كعدو. صار يراه كشاهد. شاهد على رحلة طويلة. رحلة من الظلام إلى الضوء. رحلة من الخوف إلى الحب. رحلة لم تنتهِ بعد. لكن نهايتها صارت قريبة.

يتبع...

الفصل التاسع عشر

وجه بلا قناع

عاد رايان إلى القصر بعد منتصف الليل بثلاث ساعات. المدينة كانت نائمة خلفه. الطرق مبللة بمطر خفيف. السماء سوداء بلا نجوم. كان متعباً، لكنه لم يكن منهكاً. كان هناك فرق بين التعب والانهيار. ورايان لم يعد يعرف الانهيار. منذ وقف على جسر تشارلز قبل سنين طويلة. تعلم أن ينهض كلما سقط. وأن يمشي كلما تعثر. وأن يواجه كلما خاف. الليلة. لم تكن المرة الأولى التي يقف فيها وحيداً في مواجهة خطر. لكنها كانت المرة الأولى التي يشعر فيها أن الخطر لم يعد خارجه. بل في كل مكان. في كل جدار من جدران بيته. في كل وجه يثق به. في كل كلمة تقال عنه.

دخل القصر من الباب الرئيسي. لم يوقظ أحداً. كان الحراس في مواقعهم. لكنهم لم يسمعوا خطواته. كان يعرف كيف يتحرك بصمت. صعد إلى مكتبه. جلس في الظلام. ولم يشعل الضوء. كان يريد أن يفكر. وأن يسمع صوت المطر. وأن يتذكر كلمات كيريل الأخيرة: سأجعلك تختار بين الحب والحياة. رايان كان يعرف أن هذه ليست مجرد كلمات. بل وعد. وعد من رجل لا يعرف الرحمة. ولا يؤمن بغير الخراب.

في السادسة صباحاً، دخل عزيز المكتب. كان يحمل فنجان قهوة ساخنة، وملفاً جديداً. قال بصوت منخفض: سيدي، هناك شيء ما. رايان رفع رأسه: ما هو؟ عزيز قال: كيريل لم ينتظر أسبوعاً. بدأ التحرك الليلة. رايان جلس باستقامة: ماذا فعل؟ عزيز فتح الملف: هاجم ثلاث شركات واجهة كانت تتبع لنا في الخارج. أحرق مستودعاً في الميناء. واعتقل رجاله أحد المحاسبين القدامى. وأرسل رسالة إلى أعضاء مجلس الإدارة: إما أن يستقيلوا أو أن يتحملوا العواقب. رايان قال: هل استقال أحد؟ عزيز أومأ: ثلاثة منهم. في الساعات الأخيرة. رايان لم يجب. كان يعرف أن كيريل لا يلعب، وأن الحرب التي بدأت في الظل تتسع بسرعة. قال: وماذا عن الرجال الذين كانوا معنا في براغ؟ عزيز قال: عادوا. كلهم. لكن أحدهم مصاب. اشتبكوا مع رجال كيريل في المطار. لم يكن الأمر مخططاً. رايان وقف، مشى نحو النافذة. الضوء الأول كان يزحف على الحديقة. قال: كيريل يريد أن يشتتنا. يضرب في أكثر من مكان في نفس الوقت، حتى لا نعرف أين يتجه. لكن الحقيقة أنه يريد القصر. يريد عائلتي. يريد أمل. هذا هو الهدف النهائي. دائماً كان.

في تلك اللحظة، فُتح الباب ودخلت لين. كانت مستيقظة منذ ساعات، عيناها متعبتان لكنهما حادتان. قالت: ماذا حدث؟ رايان قال: بدأت الحرب. لين نظرت إليه: ماذا نحتاج أن نفعل؟ رايان قال: نحتاج أن نكون جاهزين. ليس فقط بالسلاح، بل بالعقل. كيريل يلعب لعبة نفسية. يريد أن يزرع الخوف فينا، أن يجعلنا نتفرق، أن يدفعنا إلى أخطاء. يجب أن نبقى متماسكين. عزيز قال: الحراسة على القصر ضعيفة بعد سفرنا. نحتاج إلى استدعاء المزيد من الرجال. رايان أومأ: نعم. لكن ليس من الخارج فقط. نحتاج أن نعرف من بالداخل. الخائن الذي فتح الباب الخلفي ما يزال هنا. عزيز قال: نحن نراقبه. لم يتحرك بعد. رايان قال: سيتحرك. عندما يصل كيريل إلى ضواحي المدينة. عندها سنعرف شبكته كاملة.

مرت الأيام التالية ببطء، لكنها كانت مليئة بالحدث. رايان لم يغادر القصر إلا مرات قليلة، وكان في كل مرة يخرج فيها يعود بسرعة. كان يتلقى تقارير عن تحركات كيريل، عن رجاله، عن الأماكن التي يستهدفها. كانت الحرب الاقتصادية تتسع، لكن رايان لم يعد يهتم بالمال. كان يهتم بشيء واحد: حماية أمل. ابنته صارت مركز كل شيء. كان يعرف أن كيريل لن يستهدفها مباشرة في البداية،

بل سيحاصرها، سيحرمها من حياة طبيعية، سيجعلها تشعر أن العالم يضيق عليها. رايان لم يكن يريد ذلك. كان يريد أن تكبر أمل حرة، أن تذهب إلى مدرستها، أن تقرأ كتبها، أن تكتب قواعدها. كان يريد أن يحمي طفولتها، حتى لو كان ذلك يعني أن يذهب هو إلى الحرب بدلاً منها.

في إحدى الليالي، جلس رايان مع أمل في الحديقة. كانت السماء صافية، والنجوم ظاهرة. أمل قالت: لماذا لا تنام؟ رايان قال: لأني أفكر. أمل قالت: في ماذا؟ رايان قال: في كل شيء. في الماضي، في الحاضر، في المستقبل. في كيف نصل إلى السلام. أمل نظرت إليه: السلام ليس مكاناً نصل إليه. السلام هو طريقة نمشي بها. رايان ابتسم: من أين تعلمت هذا؟ أمل قالت: منك. من أمي. من جدي الذي لم أعرفه. من كل هذه القصة التي تحيط بنا. تعلمت أن السلام ليس غياب الحرب. السلام هو اختيار. اختيار أن تبقى إنساناً، حتى حين يريدونك أن تتحول إلى شيء آخر. رايان سكت. كان يشعر أن ابنته تكبر أسرع مما ينبغي، وأن الحكمة تتسرب إلى قلبها من كل هذه المعاناة. قال: أنت لا تخافين. أمل قالت: أخاف. لكن ليس من الموت. أخاف من أن أنسى من أنا. رايان نظر إليها: لن تنسي. طالما أنا هنا. قالت: وأنا طالما أنا هنا، لن أنساك.

في اليوم التالي، جاءت رسالة جديدة. هذه المرة لم تكن ورقية، بل كانت رسالة صوتية، مرسلة إلى هاتف رايان. فتحها في مكتبه. كان صوت كيريل. قال بصوت هادئ لكنه مسموم: رايان، أنت تعرف أن القادم أسوأ. لا أريد أن أقتلك، ولا أريد أن أقتل أحداً. أريد فقط أن أسمعك تقولها. قل إن البارون كان على حق. قل إن الإمبراطورية كانت الشيء الوحيد الذي يستحق أن يعاش من أجله. قل إن الحب وهم. عندها سأتوقف. عندها سأرحل. عندها سأتركك مع عائلتك، ومع شركتك، ومع سلامك المزعوم. لكن رايان لم يجب. أغلق الرسالة. كان يعرف أن الاستجابة هي ما يريده كيريل. كان يريد أن يجر رايان إلى مستنقع الاعتراف، ليحطمه نفسياً، ليثبت أن التلميذ ما يزال ضعيفاً. رايان لم يكن ضعيفاً. كان يعرف أن الصمت أحياناً هو أقوى جواب.

لكن الرسالة لم تكن الأخيرة. في كل يوم، كانت تصل رسالة. أحياناً بصوت كيريل، وأحياناً بصوت رجاله، وأحياناً مجرد صور لأماكن كان رايان يعرفها: فندق القصر الذهبي في براغ، الغابة التي ترك فيها البارون، القصر على البحر. كانت حرب أعصاب. حرب تهدف إلى جعل رايان يعيش في قلق دائم. لكن رايان كان أقوى من ذلك. كان يعرف أن كيريل لا يستطيع أن يمسه إلا إذا سمح له. فقرر ألا يسمح. قرر أن يواجه.

اتصل رايان بعزيز: جهز الطائرة. عزيز سأل: إلى أين؟ رايان قال: إلى الشرق. إلى قصر البارون. عزيز تردد: لكن كيريل هناك. رايان قال: أعرف. سأذهب إليه. لن أنتظر حتى يأتي. سأواجهه. عزيز قال: هذه مخاطرة. رايان قال: كل شيء مخاطرة. لكن البقاء هنا، ننتظر، هو أضعف من المخاطرة. سأذهب. سأنهي هذا.

في اليوم التالي، سافر رايان. لم يخبر لين هذه المرة. كان يعرف أنها ستقلق، لكنه كان يعرف أيضاً أنها تفهم. ترك رسالة على مكتبه: سأعود. بعد أن أنهي كل شيء. دخل الطائرة وحده. كانت الرحلة طويلة. جلس في مقعده، ينظر إلى الغيوم. كان يعرف أن هذه المرة لن تكون مثل المرات السابقة. هذه المرة، سيلتقي كيريل ليس كعدو، بل كمرآة. مرآة تعكس كل شيء كان يمكن أن يصبحه. كان يريد أن يرى وجه كيريل بوضوح، بلا قناع، بلا تمثيل. كان يريد أن يعرف: هل هذا هو ما كان سيكون عليه لو لم يختر الحب؟ هل هذا هو الوحش الذي كان سيصبحه؟

حطت الطائرة في مطار صغير قرب الساحل. استأجر رايان سيارة، وقاد بنفسه نحو قصر البارون. الطريق كان طويلاً، لكنه كان يعرفه. كان يعرف كل منعطف، كل شجرة، كل صخرة. حين وصل إلى القصر، كانت البوابة مفتوحة. كانوا يعرفون أنه سيأتي. دخل. وجد رجال كيريل في الفناء.

لم يعترضوه. سمحوا له بالمرور. دخل القصر. في القاعة الكبرى، كان كيريل جالساً وحده على كرسي خشبي، لا طاولة، لا رجال، لا أسلحة ظاهرة. كان ينتظر. عندما رأى رايان، ابتسم. قال: أخيراً. أتيت لترى وجهي.

رايان وقف في منتصف القاعة. قال: لم آتِ لأرى وجهك. بل لتريك وجهي. وجه رجل لم يعد يخافك. كيريل ضحك: شجاع. لكن الشجاعة لا تكفي. ماذا ستفعل الآن؟ ستقتلني؟ رايان قال: لا. سأعطيك فرصة. فرصة للاختيار. كيريل سخر: اختيار ماذا؟ رايان قال: اختيار أن تبقى في الظل، أو أن تخرج إلى الضوء. أن تستمر في الكراهية، أو أن تبدأ في الفهم. أن تكون ما صنعه البارون، أو أن تكون شيئاً آخر. كيريل وقف. وجهه تغير. قال: لا تتعامل معي كأنني تلميذ آخر. أنا لست جود الحمصي. أنا لست تلميذاً يبحث عن الخلاص. أنا رجل يعرف ما يريد. وأريد أن أراك تنهار. رايان قال: لن تنهار أبداً. لأنني لم أعد مبنياً على ما يمكن أن ينهار. أنا مبني على شيء لا تراه. على شيء لا يمكنك فهمه. كيريل اقترب: وما هو؟ رايان نظر في عينيه: الحب. الحب الذي ظنه البارون ضعفاً. الحب الذي يجعلني أقف هنا، أمامك، بلا سلاح، ولا أخاف. لأني أعرف أن الحب لا يموت. وأنت، بكل كراهيتك، ستموت وحيداً، كما مات البارون. هذه هي الحقيقة. الوجه بلا قناع. وجهك الحقيقي.

ساد الصمت. كيريل كان ينظر إلى رايان، عيناه الزرقاوان تحترقان. ثم قال: سترى. سترى من سيموت وحيداً. ثم أخرج من جيبه هاتفاً، وضغط زراً. في تلك اللحظة، سمع رايان صوت انفجار بعيد. ثم آخر. ثم آخر. كيريل قال: هذا أول ثلاثة من مستودعاتك. رايان لم يتحرك. قال: احرق ما شئت. لن تحرقني. كيريل قال: سأحرق كل شيء. حتى القصر. حتى الذكرى. حتى اسمك. رايان قال: الاسم لا يحترق. الاسم يعيش في من يحمله. وأنت لا تملك من يحمل اسمك. لهذا ستفشل. لهذا ستبقى فارغاً. لهذا أنت وحدك.

بقي كيريل صامتاً. كان رايان يرى في عينيه شيئاً يتغير. ليس خوفاً. بل تردداً. كان كيريل قد بنى حياته على فكرة أن رايان سينكسر، وأن الحب ضعف، وأن الكراهية قوة. والآن، ها هو يرى أمامه رجلاً لا ينكسر. رجلاً لا يشبهه. رجلاً يشبه الضوء الذي كان يظنه سراباً. كيريل قال بصوت منخفض: إن لم تنكسر الآن، فستنكسر لاحقاً. رايان قال: لن أنكسر. لأنني لم أعد وحدي. ثم استدار. مشى نحو الباب. توقف عند العتبة. قال: عندما تريد أن ترى وجهك الحقيقي، تعال. لكن لا تأتِ كعدو. تعال كرجل يبحث عن شيء. ربما تجده.

خرج رايان من القصر. السماء كانت تمطر. البحر كان هائجاً. مشى نحو سيارته، صعد، انطلق. في الطريق إلى المطار، كان يفكر. كان يعرف أنه لم ينتصر، لكنه لم يهزم. كان قد زرع شيئاً في كيريل. شكاً. صدعاً في جدار الكراهية. لم يكن متأكداً إن كان هذا كافياً. لكنه كان يعرف أن هذه هي الطريقة الوحيدة: أن تكسر الوحش ليس بالسيف، بل بالحقيقة. أن تريه وجهه بلا قناع. حتى يخاف من نفسه.

وصل رايان إلى المطار، صعد إلى الطائرة، جلس. اتصل بعزيز: عدت. ماذا حدث هنا؟ عزيز قال: ثلاثة مستودعات احترقت. لكن لا إصابات. كل الرجال خرجوا قبل الانفجارات. كان لدينا تحذير. رايان قال: من؟ عزيز قال: شخص مجهول. أرسل رسالة قبل ساعة من الانفجارات. أنقذنا. رايان سكت. كان يفكر. ربما كان هناك شخص آخر في اللعبة. شخص لا يعرفه. شخص يريد مساعدته. أو ربما كان كيريل نفسه زرع التحذير ليبدو أرحم مما هو. لا شيء واضح. لكن رايان كان يعرف أن شيئاً تغير. اللعبة لم تعد واضحة. الوجوه صارت متعددة. الأقنعة صارت أكثر.

حين عاد إلى القصر، وجد لين وأمل في انتظاره. لم يقل شيئاً. فقط نظر إليهما. كان متعباً، لكنه كان مطمئناً. كان يعرف أنه فعل ما يجب. لقد وقف أمام كيريل، ولم يكسر. لقد حافظ على إنسانيته. هذا هو النصر الحقيقي. ليس هزيمة العدو، بل عدم التحول إلى ما يشبهه. رايان صعد إلى غرفته، جلس على السرير، نظر من النافذة. المطر كان يهطل. كان يشبه مطر براغ. مطر البدايات. مطر النهايات. أغمض عينيه. كان يعرف أن الفصل الأخير لم يأت بعد. لكنه صار مستعداً. أكثر من أي وقت مضى.

يتبع...

الفصل العشرون

الوريث

جاء اليوم الذي كان يخشاه الجميع دون أن ينطقوا به. كانت المدينة تستيقظ على أخبار غامضة، وشائعات تزحف كالضباب بين الأزقة. ألسنة الناس بدأت تهمس عن رجل عاد من الموت، عن قصر على البحر، عن حرب صامتة تدور في الظل. لكن في قصر المواراتي، كان هناك صمت من نوع آخر. صمت الرجال الذين يعرفون أن اللعبة بلغت نهايتها، وأن كل حركة بعد الآن قد تكون الأخيرة.

كان رايان قد عاد من الشرق في اليوم السابق، ومنذ ذلك الحين لم ينم. جلس في مكتبه، والستائر مفتوحة على سماء ملبدة بالغيوم. أمامه على الطاولة كانت تتكدس الأوراق: خرائط، تقارير، صور ملتقطة من طائرات استطلاع صغيرة، ورسائل قديمة كتبها البارون قبل موته. كان قد أخرجها من درج المكتب المغلق، ذلك الدرج الذي لم يفتحه إلا مرات قليلة منذ أن ورث الإمبراطورية. كان يريد أن يفهم، أن يرى الصورة كاملة، أن يعرف ماذا كان كيريل يخطط له بالضبط. لكن كلما قرأ أكثر، أدرك أن الخطة ليست في هذه الأوراق. الخطة في رأس كيريل. في قلبه المليء بالرماد. في رغبته العميقة في أن يحول كل شيء إلى صحراء.

عزيز دخل المكتب في السابعة صباحاً. لم يكن وحده. كان يرافقه رجلان من الفريق الأمني، وجههما متوتران، وكلاهما يحمل جهاز اتصال. قال عزيز بصوت منخفض: سيدي، تلقينا بلاغاً. كيريل غادر قصر البارون. رايان رفع رأسه: متى؟ قال عزيز: قبل ساعات. تحرك مع عشرة رجال على الأقل. أخذوا طريق الساحل ثم انطلقوا شرقاً. لا نعرف وجهتهم. لكننا نعتقد أنهم يتحركون نحو مدينة قريبة من مطار خاص. رايان سأل: هل لدينا أي معلومات عن المطار؟ عزيز قال: نعم. طائرة شحن صغيرة هبطت هناك الليلة الماضية. حمولة غير معروفة. رايان وقف: حمولة؟ عزيز أومأ: يبدو أنهم جلبوا شيئاً. أسلحة ربما. أو معدات. أو أشخاص. لا نعرف. لكنه لم يكن يتحرك لمواجهة مباشرة. كان يجهز شيئاً أكبر.

مشى رايان إلى النافذة. الحديقة كانت هادئة. الأشجار ساكنة. لا ريح. كأن الطبيعة نفسها تنتظر. قال: كيريل لا يريد مواجهة عسكرية. هو يعرف أننا متفوقون داخل المدينة. بدلاً من ذلك، سيضرب من بعيد. سيستخدم الخوف. سيحرق ما حولنا حتى ننهار من الداخل. عزيز قال: ماذا نفعل؟ رايان التفت إليه: سنفعل ما لم يتوقعه. لن نلاحقه. سنستدرجه. إلى هنا. إلى أرضنا. إلى المكان الذي نعرفه. سنجعل قصره البعيد سجناً، ونحول مدينتنا إلى فخ. عزيز سأل: كيف؟ رايان قال: سننسحب من كل الأماكن التي يستهدفها. سنفرغ المستودعات، سنخلي المكاتب،

سنخفي كل ما يمكن أن يحرق. ثم ننتظر. عندما يأتي باحثاً عن الدمار، لن يجد شيئاً. سيجد فقط الصمت. وهذا سيغضبه. الغضب يدفع إلى الخطأ. والخطأ هو ما نحتاجه.

استمرت الاستعدادات طوال اليوم. رايان أرسل رسائل إلى رجاله في الخارج، أمرهم بالانسحاب المؤقت من المواقع الثانوية. طلب من عزيز أن يعزز الحراسة على القصر دون أن يكون ذلك ظاهراً. أن يزيد العيون في الشوارع المحيطة، وأن يراقب كل غريب يدخل المدينة. كان يعرف أن كيريل يراقبهم، ولذلك جعل كل شيء يبدو عادياً. القصر بقي مضاءً. الحراس بقيوا في مواقعهم. الشركة واصلت عملها. لكن تحت السطح، كان هناك تحول. استعداد لمعركة قد لا تُخاض بالسلاح. معركة أعصاب. معركة بقاء.

في تلك الليلة، جلس رايان مع لين وأمل في غرفة المعيشة. كان المكان دافئاً، والنوافذ مغلقة، لكن البرودة كانت تتسرب من كل حافة. قال رايان: أريدكما أن تكونا مستعدتين. ليس بالمعنى الذي تظنانه. لا أريدكما أن تحملا السلاح أو تختبئا. أريدكما أن تتذكرا أن ما يحدث الآن لا يحدد من نحن. نحن لم نصل إلى هنا لنصبح ضحايا. نحن اخترنا هذا الطريق. لقد اخترنا الضوء. ولا يمكن لرجل مثل كيريل أن يأخذ منا ذلك. لين نظرت إليه: أنا لست خائفة.

لكني قلقة على أمل. أمل قالت: لا تقلقي يا أمي. أنا أفهم أكثر مما تظنان. رايان نظر إليها: أخبريني. ماذا تفهمين؟ قالت: أفهم أن هناك رجلاً يكرهنا. يكره أبي. ليس لأننا فعلنا شيئاً، بل لأننا نمثل شيئاً لا يستطيع هو أن يكونه. أفهم أن هذا الرجل يريد أن يحولنا إلى ما يشبهه، حتى لا يكون وحده. لكنه لا يعرف أن الوحدة لا تنكسر بالكراهية. بل بالحب. نحن لسنا وحدنا. نحن معاً. ولذلك لن يكسرنا.

كانت كلماتها كافية. رايان لم يجب. كان يسمعها، ويشعر بأنه ربما كان يقلل من شأن ابنته. لم تعد تلك الطفلة التي كانت تخاف من الظلام. صارت شابة تفهم أن الظلام ليس عدواً، بل فرصة لإظهار النور. صارت وريثة حقيقية، ليس للإمبراطورية، بل لشيء أعمق. وراثة الروح.

في منتصف الليل، جاءت المكالمة. كان عزيز يراقب الشاشات في غرفة المراقبة، ورأى شيئاً غير عادي. ثلاثة رجال اقتربوا من البوابة الشمالية للقصر. لم يحاولوا التسلل. وقفوا هناك، في الضوء، كأنهم يريدون أن يُروا. كانوا يحملون رسالة. عزيز أرسل الحراس. فتحوا البوابة بحذر. دخل الرجال الثلاثة. كانوا هادئين، لا سلاح معهم. أحدهم تقدم، ومدّ ظرفاً أسود إلى عزيز. قال: من السيد كيريل. إلى السيد رايان. ثم استداروا وغادروا دون أن ينطقوا بكلمة أخرى.

فتح رايان الظرف في مكتبه. كان فيه رسالة مكتوبة بخط كيريل، الخط نفسه الذي عرفه من قبل. رسالة قصيرة، لكنها كانت أثقل من أي رسالة سابقة. كتب: "الليلة. الساعة الثانية. في المسرح القديم. تعال وحدك. لا أريد حرباً. أريد نهاية. إن أتيت، فسأتركهم يعيشون. إن لم تأتِ، فسأحرق المدينة كلها. الخيار لك. كيريل."

المسرح القديم. كان مكاناً مهجوراً في قلب المدينة، بُني قبل عقود ثم أغلق بعد حريق. كانت جدرانه ما تزال واقفة، لكن سقفه انهار في بعض الأماكن. كان مكاناً يعرفه الجميع ولا يزوره أحد. مكاناً مثالياً للنهاية. رايان قرأ الرسالة مرتين. ثم نظر إلى عزيز: لن أذهب وحدي. عزيز قال: لكنه اشترط. رايان قال: اشترط لأنه خائف. لأنه يعرف أن الحرب الحقيقية لن تكون في المسرح، بل في الشوارع. سأذهب. لكنكم ستكونون في كل مكان. في الظل. في السطوح. في الأزقة. إذا رأيتم أي إشارة، تتحركون. عزيز أومأ: سنكون جاهزين.

لم يكن رايان خائفاً. كان يعرف أن هذه هي اللحظة التي أعد لها منذ سنوات. لحظة الحقيقة. لم تكن تتعلق فقط بمواجهة كيريل، بل بمواجهة كل ما يعنيه. كيريل كان يرمز إلى الطريق الذي لم يسلكه. لو لم تظهر لين في حياته،

لو لم يسمع صوت أمه في رسالة، لو لم يشعر بالحب الذي بدد الظلام، لكان ربما أصبح مثل كيريل. وحشاً يبحث عن الخلاص بالدم. لكنه اختار طريقاً آخر. طريقاً صعباً، لكنه حقيقي. والآن، عليه أن يثبت أن هذا الطريق لا يمكن أن يُهزم.

في الساعة الواحدة، خرج رايان من القصر وحده. السماء كانت سوداء، والريح باردة. كان يرتدي معطفه الأسود، لكنه لم يحمل سلاحاً. كان يعرف أن السلاح لن ينقذه. ما سينقذه هو رباطة جأشه. هو إيمانه بأن الحب أقوى من الكراهية. هو كل ما تعلمه من أمه، ومن لين، ومن أمل. مشى في الشوارع الفارغة، خطواته تتردد على الرصيف. كانت المدينة صامتة. لا سيارات، لا أصوات. كأن الجميع يعرف أن شيئاً ما يحدث الليلة.

وصل إلى المسرح القديم. كان المبنى مظلماً، لكن الباب الرئيسي كان مفتوحاً. دخله. في الداخل، كان هناك ضوء خافت من مصابيح طوارئ قديمة. رائحة الغبار والعفن والرطوبة. الصفوف الخشبية للكراسي كانت مكسورة. الستائر المسرحية كانت ممزقة. على الخشبة، كان كيريل واقفاً. وحده. في وسط الخشبة، تحت ضوء كشاف واحد كان يضيء وجهه من الأعلى. لم يكن هناك أحد آخر. فقط هو، ورايان.

قال كيريل: أتيت. رايان قال: كنت سآتي منذ البداية. حتى دون رسالتك. كيريل ابتسم: كنت أعرف. لهذا اخترت هذا المكان. إنه يشبهنا. مسرح محترق. بقايا عرض فاشل. رايان صعد إلى الخشبة. وقف على بعد خطوات. قال: لماذا هنا؟ كيريل نظر حوله: لأن المسرح هو المكان الذي تظهر فيه الحقيقة عارية. هنا، لا يمكنك أن تختبئ خلف الأقنعة. لا وراء الشركة، ولا وراء العائلة، ولا وراء اسمك. هنا، أنت مجرد رجل. وأنا كذلك. فلنتكلم بلا أقنعة. رايان قال: وماذا تريد أن تقول؟ كيريل اقترب خطوة: أريد أن أقول إننا متشابهان. مهما حاولت أن تنكر. أنا وأنت، كلانا صنعه البارون. كلانا كان تلميذاً. كلانا تحول إلى شيء لم يختره. الفرق الوحيد بيننا هو أنك حصلت على فرصة. أما أنا، فلم أحصل عليها. تركني في الظل. جعلني أداة صامتة. ثم مات وتركني وحيداً. لا أريد أن أقتلك. بل أريد أن تعرف. أن تشعر. أن تفهم أن ما أنت عليه الآن لم يكن اختيارك وحدك. كان حظك. كنت محظوظاً لأنك التقيت بها. لأنك أحببت. لأنك وجدت من يذكرك بأنك إنسان. أنا لم أجد. أنا عشت في الظل. ومت في الظل. والآن أريد فقط أن تشعر بالظل ولو للحظة.

رايان نظر إليه. كان كيريل لا يبدو كالوحش الذي توقع مواجهته. بدا رجلاً متعباً. محطماً. بدا كرجل قضى حياته في غرفة بلا نوافذ. والآن يرى الضوء في وجه رجل آخر، ولا يحتمل ذلك.

رايان قال: أنت محق. كنت محظوظاً. لكن الحظ ليس كل شيء. أنا اخترت. كل يوم اخترت. حين كان البارون يطلب مني أن أقتل، اخترت الرحمة. حين كان العالم يطلب مني أن أكره، اخترت الحب. لم يكن ذلك سهلاً. كان أصعب شيء فعلته في حياتي. لكني فعلته. أنت لم تختر. أنت بقيت في الظل لأنه كان أسهل. لأنك كنت خائفاً من أن تخرج. كيريل ضحك ضحكة مرة: شجاعة؟ أنت تتهمني بالجبن؟ رايان قال: لا. أتهمك بالخوف. الخوف من الفشل. من أن تكون إنساناً. من أن تواجه العالم بلا قناع. أنا كنت خائفاً مثلك. لكني تعلمت أن الخوف لا يزول بالقتل. الخوف يزول بالمواجهة. بالمواجهة الحقيقية. مع نفسك.

ساد الصمت. الريح عبرت من خلال النوافذ المكسورة. الستائر القديمة تحركت كأشباح. كيريل كان ينظر إلى الأرض. ثم قال بصوت منخفض: ربما. ربما كنت خائفاً. لكن هذا لا يغير شيئاً. لقد اخترت طريقي. وسأكمل فيه. سأحرق كل شيء. سأجعل مدينتك صحراء. سأجعلك تشعر بما شعرت به. بالوحدة. بالعجز. بالظل. رايان قال: لن تفعل. كيريل رفع رأسه: ولماذا؟ رايان قال: لأنك لا تريد ذلك حقاً. لأنك إن أحرقت كل شيء، ستحرق نفسك. وستظل وحيداً. الوحدة لا تُشفى بالانتقام. الوحدة تُشفى بالتواصل. وأنت هنا، الليلة، لم تأت لتقتل. بل أتيت لتسمع. لتشعر أن هناك من يراك. ها أنا أراك. كيريل. ابن العهد. تلميذ البارون. الرجل الذي ظن أنه لا يستحق الضوء. لكنه يستحق. كلنا نستحق.

كانت كلمات رايان تهبط على كيريل كالمطر على أرض جافة. كان وجهه يتغير. كان هناك صراع في عينيه. صراع بين الكراهية التي عاش بها عشرين عاماً، وبين شيء آخر. شيء يشبه الأمل. شيء لم يجرؤ على تسميته. نظر إلى رايان. ثم إلى المسرح من حوله. ثم إلى يديه. كانا ترتجفان. قال: لا يمكنني العودة. لقد فعلت أشياء. جعلتني غير قادر على الرحمة. رايان قال: يمكنك. كلنا نستطيع. الرحمة ليست شيء نولد به. إنها شيء نتعلمه. بالندم. بالاعتراف. بالتوقف. يمكنك أن تتوقف. الليلة. هنا. أن تضع السلاح، وترحل. ليس كعدو، بل كرجل قرر أن يبدأ من جديد.

كيريل سكت طويلاً. كان ينظر إلى رايان، وكأنه يحاول أن يقرأ وجهه. ثم قال: وماذا لو رفضت؟ رايان قال: سأفعل ما يجب. لكني لا أريد ذلك. أريد أن ننهي هذا بلا دم. أريد أن نثبت أن البارون كان مخطئاً. أنه لم يصنع وحوشاً. أنه صنع رجالاً يمكنهم أن يتغيروا. كيريل ابتسم ابتسامة صغيرة، لكنها لم تكن ساخرة. كانت حزينة. قال: أنت تحلم. رايان قال: نعم. أحلم. لهذا أنا هنا. لهذا أنا مختلف. الأحلام هي ما يجعلنا بشراً. البارون لم يكن يحلم. كان يخاف. أنت أيضاً كنت خائفاً. لكن يمكنك أن تحلم. ابدأ الآن.

في تلك اللحظة، سمع صوت خطوات سريعة. رجال رايان دخلوا المسرح من الأبواب الجانبية. كانوا يحملون أسلحتهم، وجوههم جادة. عزيز تقدم. قال: سيدي، رجال كيريل في الخارج. يحيطون بالمكان. رايان لم ينظر إليه. بقي ينظر إلى كيريل. قال: أخبرهم أن ينسحبوا. هذه ليست معركة. كيريل نظر إلى رايان، ثم إلى عزيز. ثم إلى رجاله الذين كانوا يظهرون في الظلال. رفع يده. قال: انسحبوا. لا أحد يطلق النار. كان صوته هادئاً لكنه آمر. رجاله توقفوا. نظروا إليه باستغراب. لكنهم انصاعوا. تراجعوا إلى الخارج. كيريل نظر إلى رايان مرة أخرى: يبدو أنك نجحت. رايان قال: لم أنجح. نحن بدأنا. كيريل أومأ. ثم استدار. مشى نحو المخرج. توقف عند العتبة. قال: لن أعود. ليس لأنك هزمتني. بل لأنني رأيت ما لم أكن أريد رؤيته. رأيت أنك لست عدوي. أنت مرآتي. والمرآة لا تكسر. تنعكس. ثم خرج. واختفى في الليل.

بقي رايان وحيداً في المسرح. كان يشعر بالخوف يغادر جسده ببطء، كأن حملاً ثقيلاً رفع عن كتفيه. كان يعرف أن هذه لم تكن نهاية، بل بداية. بداية نهاية الحروب. دخل عزيز. قال: سيدي، رجاله يغادرون. رايان قال: دعهم. عزيز سأل: هل انتهى؟ رايان نظر إلى الخشبة، إلى الضوء، إلى الستائر الممزقة. قال: لا أعرف. لكن شيئاً انتهى الليلة. شيء اسمه الكراهية. ربما.

عاد رايان إلى القصر قبل الفجر. كانت المدينة لا تزال صامتة. لكن هواءها كان مختلفاً. أنقى. كأن العاصفة التي كانت تتراكم انفرجت. دخل البيت. وجد لين وأمل في غرفة المعيشة. كانتا مستيقظتين. لم تسألا. كانتا تعرفان. نظر إليهما. قال: كيريل رحل. لن يعود. أمل قالت: هل أنت متأكد؟ قال: لست متأكداً من أي شيء. لكني أعرف أن شيئاً تغير. الليلة، وقف أمامي رجل كان يحمل كل الكراهية في العالم. رأى أن الكراهية لا تمنحه شيئاً. ربما رأى نفسه. ولهذا رحل. لين قالت: وماذا الآن؟ رايان جلس بجانبهما. قال: الآن، نبدأ من جديد. ليس من الصفر. بل من كل ما بنيناه. من كل ما تعلمناه. من كل قصة، وكل جرح، وكل خسارة. نبدأ من الحقيقة. الحقيقة التي تقول إننا لسنا وحوشاً. إننا بشر. بشر قابلون للكسر. لكننا قابلون للشفاء أيضاً.

أمل نظرت إليه. قالت: القاعدة السادسة. رايان نظر إليها: ماذا؟ قالت: لم تكتمل قواعدي. كان ينقصها شيء. الآن عرفت ما هي. أخرجت دفترها الأزرق. فتحته. كتبت بخطها الواضح: القاعدة السادسة: لا تنتظر أن يأتي السلام من الخارج. السلام يبدأ من الداخل. من اللحظة التي تقرر فيها ألا تكون وحشاً. من اللحظة التي تختار فيها أن ترى الآخر، لا كعدو، بل كمرآة. من اللحظة التي تدرك فيها أن الحب ليس هروباً من المعركة، بل هو المعركة نفسها. اكتبها. عشها. ثم مررها.

رايان استمع. كان وجهه هادئاً. كان يشعر بأن الدائرة اكتملت. لقد بدأ هذا كله برسالة من أمه، وها هو ينتهي بقاعدة من ابنته. بين البداية والنهاية، كان هناك دم، ودموع، وحرب، وحب. وكان هناك دائماً خيط رفيع يربطهم ببعض. خيط اسمه الإنسانية. خيط اسمه الأمل. نظر إلى أمل: أنتِ جاهزة. قالت: نحن جاهزون. لين أمسكت بيده. لم تقل شيئاً. لكن دفء يدها كان كافياً.

في الأيام التي تلت، بدأت الأمور تتغير. كيريل اختفى فعلاً. لم يعد أحد يتحدث عنه. رجاله تفرقوا. القصر على البحر بقي خالياً. الشركة بدأت تتعافى. المستودعات التي احترقت أُعيد بناؤها. لكن الأهم، أن رايان بدأ يخرج من الظل. لم يعد الوريث الذي يحمل إرث الدم، بل الرجل الذي اختار أن يورث الضوء. بدأ يقضي وقتاً أطول مع عائلته. بدأ يعلم أمل أشياء لم يتعلمها من البارون. كيف تسمع. كيف ترى. كيف تحب دون أن تفقد نفسها. كان يعلمها أن القوة ليست في السيطرة، بل في التحرر. وأن الحرية ليست في الهروب، بل في البقاء. في البقاء إنساناً.

وفي إحدى الليالي، وقف رايان على شرفة غرفته، ينظر إلى المدينة. كانت الأضواء تتلألأ. كانت حية. كان يعرف أن هناك شيئاً ما يزال ناقصاً. ليس في المدينة، بل فيه. في عمق روحه. كان قد واجه كيريل. كان قد واجه البارون. لكنه لم يواجه بعد كل الأسئلة. أسئلة عن نفسه. عن ماضيه.

عن والده الحقيقي. كان يعرف أن والده مات قبل أن يولد. لكنه لم يكن يعرف من كان. ماذا كان يحب. ماذا كان يكره. كيف كان صوته. كيف كان يمشي. كان يعرف فقط أنه كان رجلاً طيباً. هكذا قالت أمه في رسالتها. كانت هذه كافية. لكنها لم تكن كاملة. كان يريد أن يعرف. ليس ليملأ فراغاً. بل ليفهم. ليفهم من أين جاء. ليفهم لماذا كان مختلفاً عن البارون. ليفهم الجذر الذي نبت منه.

سأل عزيز أن يبحث في سجلات المستشفى، في أوراق الزواج، في كل ما يتعلق بوالدته ووالده. استغرق البحث أسابيع. لكن النتيجة جاءت. كان والده اسمه إيليا. إيليا خوري. رجل من أصل لبناني، هاجر إلى أوروبا، عمل في تجارة الكتب القديمة. كان هادئاً، محباً للقراءة، وكان يكتب الشعر. لم يكن له علاقة بالإمبراطورية. لم يكن يحمل سلاحاً. لم يكن يخاف. كان يرى العالم ببساطة. تزوج من أم رايان، وأحبا بعضهما حباً عميقاً. ثم مرض ومات قبل أن يرى ابنه. رايان قرأ هذه المعلومات في مكتبه، والدموع تنهمر بصمت. لم يكن يبكي على فقدان أب لم يعرفه. بل كان يبكي لأنه، للمرة الأولى، شعر أنه ينتمي. ليس إلى الإمبراطورية. ليس إلى البارون. بل إلى رجل بسيط كان يكتب الشعر ويبيع الكتب القديمة. رجل كان سيحب رايان لو عاش.

رجل كان سيعلمه أن الحياة لا تحتاج إلى عنف لتصبح ذات معنى. كان هذا هو الإرث الحقيقي. إرث لم يكن في الوصية. إرث لم يكن في القواعد. إرث كان في الدم. في الجينات. في الطريقة التي يشعر بها رايان نحو العالم.

في تلك الليلة، أخرج رايان رسالة أمه. قرأها مرة أخيرة. ثم وضعها في صندوق خشبي صغير، وأغلق الصندوق. لم يعد بحاجة إليها. صارت محفورة في قلبه. لكنه احتفظ بها. لعل أمل تقرأها يوماً. لعلها تفهم. لعلها تكتب رسالتها الخاصة. لعلها تنجو.

ومرت سنة كاملة. سنة من الهدوء. من إعادة البناء. من العيش بلا مطاردات. في أحد الأيام، جاءت رسالة من بعيد. من براغ. من فندق القصر الذهبي. كانت رسالة قصيرة. من مارتا، المرأة العجوز التي كانت تدير الفندق. كتبت: "جاء رجل هنا. كان يرتدي قناعاً أسود. سأل عنك. لم يقل اسمه. لكنه ترك شيئاً لك. قال إنك ستعرف." رايان سافر إلى براغ وحده. في الفندق، أعطته مارتا صندوقاً صغيراً. فتحه. كان فيه قناع أسود. نصف قناع. كان قناع جود الحمصي. وفي أسفل الصندوق، كانت هناك ورقة صغيرة، مكتوب عليها بخط أنيق: "لم أعد بحاجة إليه. وجهي صار يكفيني. شكراً. جود."

رايان ابتسم. كان يعرف أن جود الحمصي لم يعد شبحاً. صار رجلاً. رجلاً بوجه حقيقي. رجلاً بلا قناع. وقف على جسر تشارلز. كان النهار مشمساً. كان السياح يمشون. كان الحياة طبيعية. نظر إلى النهر. تذكر كل شيء. البداية، النهاية، كل ما بينهما. تذكر البارون، وكيريل، وجود. تذكر أمه، ولين، وأمل. تذكر أن كل هذا بدأ برسالة، وها هو ينتهي برسالة. لكن الرسالة الأخيرة لم تكن حزينة. كانت سلاماً. كانت وداعاً. كانت اعترافاً بأن الوجوه، حين تظهر، لا تعود تخاف.

عاد رايان إلى المدينة. إلى القصر. إلى عائلته. في المساء، جلس مع لين وأمل في الحديقة. كان الشتاء قد بدأ. الهواء كان بارداً. لكنهم كانوا دافئين. قال رايان: جود الحمصي خلع قناعه. أمل قالت: هل سيعود؟ قال: لا. لن يعود. لقد رحل. لكنه ترك لنا شيئاً. لين سألت: ماذا؟ قال: أثبت أن الأقنعة لا تدوم. أن الوجوه الحقيقية تظهر في النهاية. مهما تأخرت. هذا هو الأمل.

وبينما كانوا يتحدثون، بدأت الثلوج تتساقط. رقاقات بيضاء ناعمة على العشب، على الأشجار، على النوافذ. كانت المدينة تلبس ثوباً أبيض. كانت تشبه براغ. كانت تشبه البداية. لكنها لم تكن بداية. كانت نهاية. نهاية طويلة وشاقة. نهاية تستحق أن تُروى. رايان نظر إلى أمل. كانت تمد يدها لتلتقط رقاقات الثلج. كانت تضحك. كانت حية. كانت الأمل. كان يعرف أن القصة لم تنتهِ. سيكون هناك دائماً شيء جديد. خطر جديد. سؤال جديد. لكنه لم يعد يخاف. لأنه لم يعد وحيداً. لأن الحب صار جذره. والجذر لا يموت.

النهاية...

عبرة الختام

في البداية، كتب البارون قواعده. في الوسط، كسر رايان تلك القواعد. وفي النهاية، كتبت أمل قاعدتها السادسة.

لم تكن النهاية انتصاراً لرجل على رجل، ولا لبيت على بيت. كانت النهاية انتصاراً للحقيقة على الصمت، وللوجه على القناع، وللاختيار على الإرث.

ستُنسى الأسماء، وستُهدم البيوت، وستتحول الإمبراطوريات إلى غبار. لكن الضوء الذي مررته لن يموت. لذلك، إن خرجت من هذا الكتاب بشيء واحد، فليكن هذا: لا تنتظر أن يأتي السلام من الخارج. السلام يبدأ من الداخل. من اللحظة التي تقرر فيها ألا تكون وحشاً. من اللحظة التي تختار فيها أن ترى الآخر، لا كعدو، بل كمرآة. من اللحظة التي تدرك فيها أن الحب ليس هروباً من المعركة، بل هو المعركة نفسها.

اكتبها. عشها. ثم مررها.

وإن مررتها فقد اكملت الطريق...

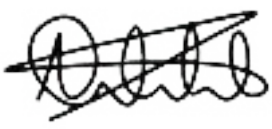

0997377851

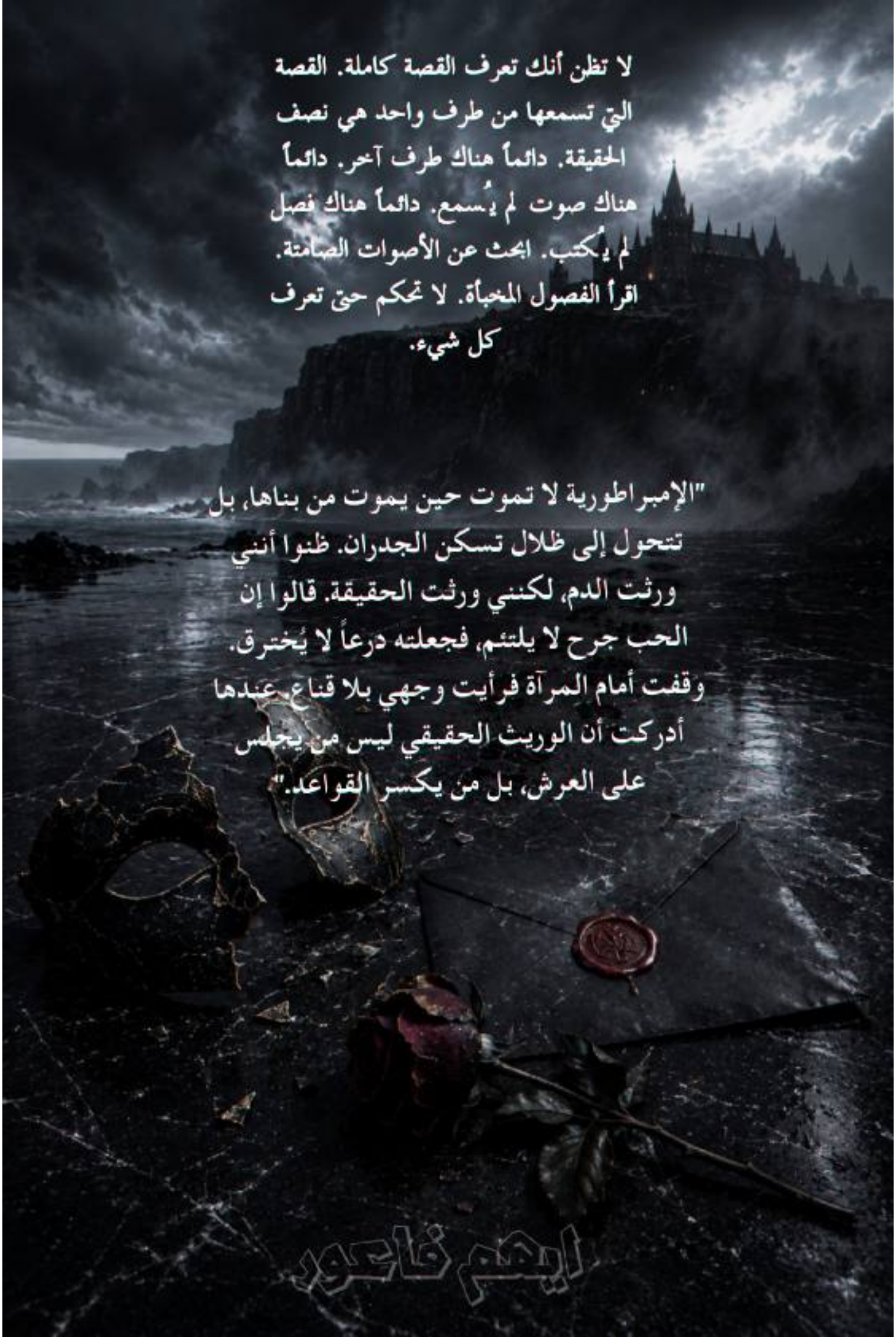
لا تظن أنك تعرف القصة كاملة. القصة
التي تسمعها من طرف واحد هي نصف
الحقيقة. دائماً هناك طرف آخر. دائماً
هناك صوت لم يُسمع. دائماً هناك فصل
لم يُكتب. ابحث عن الأصوات الصامتة.
اقرأ الفصول المخبأة. لا تحكم حتى تعرف
كل شيء.
"الإمبراطورية لا تموت حين يموت من بناها، بل
تتحول إلى ظلال تسكن الجدران. ظنوا أنني
ورثت الدم، لكنني ورثت الحقيقة. قالوا إن
الحب جرح لا يلتئم، فجعلته درعاً لا يُخترق.
وقفت أمام المرآة فرأيت وجهي بلا قناع. عندها
أدركت أن الوريث الحقيقي ليس من يجلس
على العرش، بل من يكسر القواعد."
ايهم فاعور